أبو فراس الحمدانى
وفلسفة فخره من شعره

الدكتور
محمد حسن عبد اللطيف
أستاذ اللغويات المساعد
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
بنين - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على فخر العالمين سيدنا محمد رسول الله إلى الناس أجمعين وعلى آله وصحبه الغر الميامين .

وبعد ،،

فبعون الله تعالى وتوفيقه اضطلاعي بهذا البحث الذي أعالج فيه جانبا من شعر أبي فراس الحمداني وهو : الفخر ، وحين أعالجه لا أعالج شيئا مكرورا ، وإنما أهدف إلى التعمق في فخره كي تستبين فلسفة فخره ولعلي أكون أول من اقتطفها من روضته الفيحاء لأجليها في هذه الدراسة المتواضعة ، راجيا من الله تعالى التوفيق ليعم أريجها في حديقة الأدب الغناء .

هذا وبعد أن وقفت على أن لأبي فراس ما يفخر به من الفضائل النفسية وأبرزها(فخره بالفروسية وبالسجايا الكريمة وبقومه آل حمدان)

طاب لي أن أقسم البحث بعد هذه المقدمة إلى فصول ثلاثة :

تناولت في الفصل الأول : فخره بالفروسية ، إذ كان له فيها القدح المعلى ، مبرزا ما أراه متفردا به في الفروسية ، حين يفخر بها .

والفصل الثاني : تناولت سجايا كريمة له نادرة المثال حق له أن

يفخر بها .

أما الفصل الثالث والأخير : فوقفته على فخره بأرومته آل حمدان حيث كان لهم من الشرف والسؤدد ما يجعل الشاعر يتيه بهم فخرا ، تناولت ذلك كله بالنقد والتعليق ، منصفا ، لا متحيزا ثم ذيلت الفصول الثلاثة بخاتمة تضمنت نتائج البحث التي وصلت إليها من خلال دراستي ، مبرزا الجديد فيها عساى أن أصل إلى البغية التى أبتغيها وهي : بيان فلسفة فخر الشاعر أبي فراس الحمداني .

﴿ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾

والله مبتغانا وهو حسبنا ونعم الوكيل .

د . محمد حسن عبد اللطيف

نبذة عن حياة الشاعر

نسبه: هو أبو فراس الحارث بن أبي العلاء سعيد بن حمدان الحمدوني ينتسب إلى تغلب من جهة أبيه وإلى تميم من جهة أمه ،

مولده: قيل إنه ولد في سنة عشرين وثلثمائة للهجرة ،وقيل سنة إحدى وعشرين بالموصل فسماه والده الحارث وكناه أبا فراس أي الأسد . ولم يكد يبلغ الثالثة من عمره حتى قتل والده على يدي ابن أخيه حسن الملقب ناصر الدولة ـ وهو أخو سيف الدولة ـ لأمور سياسيه ، فربى يتيما تحتضنه أمه ويرعاه ابن عمه سيف الدولة .

نشأته وحياته:

لما آل الملك إلى سيف الدولة واستقر في حلب حمل معه أبا فراس فتخرج هنالك في العلم والأدب وتمرس بالفروسية فخرج شاعرا فارسا وكان سيف الدولة يحبه لشجاعته وكرم أخلاقه ،وكان يصحبه في غاراته وقد أسرته الروم سنة ثمان وأربعين وثلثمائة ، وقيل إنه أسر مرتين ، فالمرة الأولى بغارة الكحل في سنة ثمان وأربعين وثلثمائة وحمل إلى خرشنة [1] والمرة الأخرى أسرته الروم

(١) خرشنة : بلدة قرب ملطية من بلاد الروم غزاها سيف الدولة بن حمدان ، وقالوا سمى خرشنة باسم عامره وهو خرشنة بن الروم بن اليقن بن سام بن نوح عليه السلام / معجم البلدان لياقوت الحموى جـ٢ : ص ٤١٠، ٤١١ تحقيق الجندى ط : دار الكتب العلمية بيروت .

علـــــى منبج [1] في شـوال سنـة إحـدى وخـمـسين وحـملوه إلى القسطنطينية وأقام في الأسر أربع سنين ومجموع سنوات أسره سبع [2] نفح الشعـر العربي فيـها برومياته المشهورة ، ولم يستطع سيف الدولة إفتداءة إلا في سنة خمس وخمسين وثلثمائه لعظم الفدية فيه .

منزلته الشعرية:

قـال الثعـالبي عن شـعره : (وشـعـره مشـهـور سائر بين الحـسن والجودة والسـهولة والجـزالة والعذوبة والفـخامـة والحلاوة ومـعه رواء الطبع وسمة الظرف وعزة الملك ولم تجتمع هذه الخلال قبله إلا في شعر عبد الله بن المعتـز) وكان الثعالبي يراه أشعر من ابن المعـتز حيث يقول : (ويعد أبا فراس أشعر منه عند أهل الصنعة ونقدة الكلام .

وكان الصاحب بن عبادة يقول :

بدىء الشعر بملك وختم بملك يعني امـرأ القيس وأبا فراس وكان المتنبي يشهـد له بالتقدم والتبريز ويتحامـى جانبه فلا ينبـري لمباراته ولا

---

(١) منبج : مـدينة كبـيرة واسـعـة بينها وبين الفـرات ثلاثة فراسخ وبينها وبين حلب عشرة فراسخ وهي لصاحب حلب في وقتنا هذا وقيل من منبج إلى حلب يومان، وقيل إنه بلد رومي / معجم البلدان جـ٥: ص ٢٣٧-٢٣٩ .

(٢) وفيات الأعيان جـ ٢ : ص ٥٨ وما بعدها .

يجترئ على مجاراته ، وإن لم يمدحه ومدح من هو دونه من آل حمدان تهيبا له وإجلالا ، لا إغفالا وإخلالا[1].

وفاته :

قيل إن وفاته كانت على يد ابن أخته أبي المعالي بن سيف الدولة بعد أن خلف أباه في الحكم لأسباب سياسيه ، وذلك في يوم الأربعاء لثمان خلون من شهو ربيع الآخر سنة سبع وخمسين وثلثمائة في ضيعة تعرف بصدد . وقيل : في يوم السبت لليلتين خلتا من جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وثلثمائة.

وقيل : إن قاتله (قرغويه) غلام أبي المعالى فلما بلغ أبا المعالى الخبر شق عليه !

وقيل إنه جرح وتأخر موته ثم مات من الجراحة[2] !

وبموته أفل بدر طالما أنار لآل حمدان سماءهم شجاعة ونبلا ، وكان حقا كما قال عن نفسه :

سيعرفني قومي إذا جد جد هم وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

---

(١) تراجع يتيمة الدهر ط : ص ٤٨ وما بعدها تحقيق محمد محيى الدين ط . القاهرة.

(٢) تراجع ترجمته فى يتيمة الدهر للثعالبى ، وفيات الأعيان، شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي ، وتهذيب تاريخ ابن عساكر، ديوانه ط: بيروت ، وديوانه بتحقيق د/ سامى الدهان ط : بيروت .

ولم يخسره آل حمدان وحدهم بل خسرته العربية كلها شاعرا أبيا فخورا شجاعا مغوارا ، خسرته شابا غض الإهاب !

رحمه الله تعالى كفاء ما أسدى لأدب العرب .

مدخل إلى الفخر

مما لا ريب فيه أن الفخر تمدح بالفضائل وسمو بالنفس عن الرذائل ، فهو بمثابة شهادة الإنسان لنفسه ، لذا عد هذا سمجا لأن «الإنسان يحب نفسه رأي محاسنها وخفي عليه مقابحها ، بل رأي لها من الحسن ما ليس فيها ، فقبح منه الشهادة بما لا يقبل منه ولا ترى له»[1] لكن النقاد اغتفروا ذلك للشاعر فله أن يشهد بفضائل قبيلته فهو لسانها المعبر وحسامها الذائد عنها يوم الفخار ، ذلك ما يقوله ابن رشيق:(فليس لإحد من الناس أن يطري نفسه ويمدحها في غير منافرة[2] إلا أن يكون شاعرا فإن ذلك جائز له في الشعر غير معيب عليه.[3] وقد استحسن النقاد في الفخر ما استحسنوه في المدح[4].

---

(١) ص ٧٧ الهوامل والشوامل لأبي حيان التوحيدي ومسكويه/ ط: لجنة التأليف والترجمة ١٩٥١.

(٢) نافره : فاخره وخاصمه وحاكمه .

(٣) العمدة جـ ١ : ص ٨ ط : السعادة ١٩٠٧م.

(٤) العمدة جـ ٢ : ص ١١٤.

فعلى الفـاخر بنفـسه أو بعشـيرته أن يولي وجـهه شطر الفـضائل النفسيـة دون سواها من الأمور العرضـية والمحاسن الجسـمية[1] وفيما أرى أن المدح بالمحاسن الجسمية أقرب إلى الغزل منه إلى الفخرفقد تأنق الشعراء الغزليون في تلك الأوصاف كقول امرىء القيس :

مهفهفة بيضاء غير مفاضـــــة ترائبها مصقولة كالسجنجل [2]

وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش إذا هي نصـــته ولا بمعطل [3]

تضيء الظلام بالعشاء كأنهـــا منـــارة ممسى راهب متبتل [4]

وكقول أبي فراس الحمداني في غزلياته[5]

من أين للرشا الغرير الأحور في الخد مثل عذاره المتحـــدر ؟

قمر كأن بعارضيه كليهمـــا سمكا تساقط فوق ورد أحمر

---

(١) ص ٢١٩ أسس النقـد الأدبي عن العـرب د/ أحـمد أحـمـد بدوى ط : نهـضـة مصـر بتصرف

(٢) المفهفمه : اللطيفة الخصر الضامرة البطن . السنججل : المرآة.

(٣) نصته: دفعته . المعطل : الخالى عن الحلى لاكتفائها بجمالها عن الحلى .

(٤) معلقة امرئ القيس / شرح المعلقات السبع للزوزنى ط : مصر

(٥) ديوانه ص ١٤٩وقد خصصت غزلياته ببحث عـنوانه غزليات أبى فراس الحمدانى نشر فى ١٩٩٨.

وكقوله أيضا [1]:

جارية كحلاء ممشوقـــــة في صدرها حقان من عاج

شجا فؤادي طرفها الساجي وكـــل ساج طرفه شاج

الأمـر الذي جعل النقـاد لا يرتضـون هذه الأوصاف الحسية في الفخر كمـا لا يرتضون دقة الألفاظ في الفخر دقـتها في الغزل ، ولنصغ إلى نصيحة القاضي على بن عبد العزيز الجرجاني حيث يقول :

(ولا آمرك بإجراء أنواع الشعـر كله مجرى واحداً ولا أن تذهب بجميعه مذهب بعـضه ، بل أرى لك أن تقسم الألفاظ على رتب المعاني فـلا يكون غـزلك كـافـتـخـارك ولا مـديحك كـوعـيـدك ولاهجـاؤك كاسـتبطائـك ولا هزلك بمنزلة جدك ولا تعـريضك مثل تصـريحك بل ترتب كـلا مـرتبـتـه وتوفـيـه حـقـه ، فـتلـطف إذا تغـزلت وتفـخم إذا افتخرت[2].

وإذا فخـم الشاعر ألـفاظه مفـتخـرا فقـد يجنح إلى المبالغـة وهي محمودة ومفضلة في هذا البـــاب ، حتى إن النقاد جعلوا أفخـــر بيت

---

(١) ديوانه ص ٦٣.

(٢) تراجع الوسـاطة بين المتنبي وخصـومـه ص ٢٤ تحـقـيق مـحـمـد أبو الفـضل إبراهيم والبجاوى ط: المكتبة العصرية بيروت .

ما يحمل أكبر مبالغة[1] كقول الفرزدق[2] .

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

ويليه قول جرير[3] .

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناس كلهم غضابا

وقالوا إن أفخر بيت قول ابن ميادة :

ولو أن قيساقيس غيلان أقسمت على الشمس لم يطلع عليك حجابها

وأفخر ما صنعه محدث قول بشار :

إذا ما غضبنا غضبة مضريه هتكنا حجاب الشمس أو أمطرت دما

إذا ما أعرنا سيدا من قبيلة ذرا منبر صلى علينا وسلمـــــا [4]

هذا ومن القصائد الجياد في الفخر قصيدة السموأل ابن عادياء والنقاد يعدونها من أجود ما قيل في الفخر[5] والتي يستهلها الشاعر بقوله :

---

(١) تراجع ص ٢٢٣ أسس النقد الأدبي عند العرب د/ أحمد بدوي.

(٢) البيت من قصيدة طويلة له بديوانه جـ ٢ ص ٢٣-٣٣ ط : دار بيروت للطباعة والنشر.

(٣) البيت من قصيدته في هجاء الراعي النميري ص ٥٨-٦٥ بديوانه ط : دار بيروت للطباعة والنشر .

(٤) العمدة جـ ٢ : ص ١١٥ ، ديوان بشار جـ٤ : ص ١٦٣ ط : لجنة التأليف والترجمة. ورواية الديوان : (أو تمطر) وفي رواية أخرى (تقطر).

(٥) العمدة جـ ٢ : ص ١١٧ .

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضـــه فكـــل رداء يرتديه جميل

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس إلى حسن الثناء سبيل

وعدت أجـود ما قيل فـي الفخر لاتجاهها إلى الفضـائل النفسـية وبالنظر في البيتين السابقين يلوح لنا أن الشاعر يوضح الطريق لمن أراد أن يفخر بنفسه موجزا له فى شيئين هما :

١ـ ألا يدنس باللؤم عـرضـه بالبعـد عن قـبيـح الصفـات وسيء العادات .

٢ـ أن يروض الإنسان نفسه على مخالفة مألوفها وأن يحملها حملا على ذلك من أجل الرفعة والرقي إلى معارج الكمال الإنساني .

وقـد احتـوت هذه القصـيدة على الكـثيـر والكثيـرمن الفضـائل النفسية[1] فمنها مثلا ما يصف قبيلته بالكرم قائلا :

وما أخمدت نار لنا دون طارق ولا ذمنا في النازلين نزيل

فنار ضيافتـهم مشبوبة الأوار لا تخمد جذوتـها ، ولا يحول بينها وبين الضيف حائل ، الأمر الذي يجعله يثني عليهم ولا يلحق بهم ذما ، كيف يذمهم وقد نال من قراهم ما أذهب عنه جوعه ؟

وعن الشجاعة يقول :

---

(١) وتحتاج إلى دراسة مستقلة وحسبنا هنا ما نسوقه للاستشهاد .

وأيامنا مشهورة في عدونا لهـا غرر معلومة وحجول [1]

وأسيافنا في كل يوم كريهة بها من قراع الدارعين فلول [2]

يقصد الشاعر أن أيامهم في الظفر بأعدائهم مشهودة ومسطورة في سجل تاريخ الشجاعة والبطولة ، وأن أسيافهم مسلولة في كل أيام القتال ، ولكثرة ضرب الدارعين بها أصابها فلول .

ولكثرة وقائعهم طاب له أن يطلب من صاحبته أن تسأل الناس عنهم لتعلم علم اليقين ، حيث قال :

سلى إن جهلت الناس عنا وعنهم وليس سواء عالم وجهول [3]

هذا ومما عيب من شعرالفخر قول أبي الطيب المتنبي :

لا [4] بقومى شرفت بل شرفوا بي

وبنفسي فخرت لا بجدودي [5]

---

(١) الغرر : جمع غرة وهى البياض فى جبهة الفرس ، الحجول : جمع حجل وهو البياض فى قوائم الفرس .

(٢) يوم الكريهة : يوم القتال . القراع : القتال والضرب ، الدارعون : لا بسو الدروع . الفلول : جمع فل ، وهو الثلمة فى حد السيف .

(٣) ص ٢٢ الشعراء اليهود العرب - مراد فرج ط: صلاح الدين بالاسكندرية .

(٤) فى الوساطة : (ما بقومى) .

(٥) البيت من قصيدته جـ ١ : ص ١١٢-١١٦ بالعرف الطيب فى شرح ديوان أبى الطيب لنا صيف اليازجى ط : دار بيروت .

فقدعاب عليه القاضي الجرجاني فخره بنفسه وآثارها ، لا بجدوده وآثارهم ، حين عقب على البيت قائلا عن المتنبي :

« فختم القول بأنه لا شرف له بآبائه . وهذا هجو صريح ، وقد رأيت من يعتذر به فيزعم أنه أراد » :

ما شرفت فقط بآبائي ، أي لي مفاخر غير الأبوة ، وفي مناقب سوي الحسب . وباب التأويل واسع والمقاصد مغيبه ، وإنما يستشهد بالظاهر ، ويتبع موقع اللفظ ، فأما قوله : (وبنفسي فخرت لا بجدودي)

فهو صالح ،لأنه لم ينف أن يكون له فيهم وبهم رتبة في الفخر ،لكنه قال : أكتفي في افتخاري عليكم بنفسي فأفضلكم ولا أفتقر إلى مفاخر جدودي ، وأتركها وادعة موفورة ، وقد صرح بهذا في قوله :

وإنما يذكر الجدود لهم من نفروه[1] وأنفذوا حيله[2]

أي إنما يتفاخر بالآباء والأجداد أمام المفاخرين من غلبوه ولم يجد حيلة ينفذ منها ، فافتخر بأجداده ،إذ لا فضيلة لنفسه يفتخر بها .

---

(١) نفروه : غلبوه بالفخر .

(٢) تراجع الوساطة بين المتنبي وخصومه ص ٣٧٤، ٣٧٥ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ط : المكتبة العصرية بيروت .

وبهذا أحسب القاضي الجرجاني واجد للمتنبي مخرجا مما عابه عليه ، وأرى أن المتنبي لم يغفل مكانة قومه ، بل عرف لهم فضلهم ، حين احترس لما يتوهم من أن أباه وأجداده ليسوا أهلا لأن يفتخر بهم ، حين قال عقب قوله السابق .

(ما بقومي شرفت .... البيت) عن منزلة قومه :

وبهم فخر كل من نطق بالضا د وعوذ الجاني وغوث الطريد[1]

فأي فخر بأبائه وأجداده يرقى إلى هذا الفخر ، إذا يراهم فخر كل من نطق العربية ، وأنهم ملجأ للجاني قوة ،وغوث للطريد بأسا ونجدة .

واحسب المتنبي مع اعترافه بمكانة قومه أنه لا يتكل على مجد الماضين ، بل أراد الفخر بمجد هو بانيه ومشيده لكنني كنت أود من المتنبي أن يذكر مجد آبائه ويقفيه بمجده هو وبذا يجعل له متكئا وظلا ، فلم يأت مجده من فراغ !

وأحسب الشعراء ومنهم أبو فراس الحمداني وغيره واجدين في الفخر بآبائهم لذة [2] ومتعة .

هذا ويروقني من شعراء العصر الحديث رائدهم وباعث نهضتهم

---

(١) العود : الالتجاء . الغوث: النصرة . الطريد : المطرود

(٢) وسيأتي ذلك تفصيلا فيما بعد .

الشعرية رب السيف والقلم البارودي[1] حيث يقول مفتخرا وأراه معتزا بأرومته[2].

غماني إلى العليـاء فرع تأ ثلـت أرومته في المجد وافتر سعده
وحسب الفتى مجدا إذا طلب العلا بما كان أوصاه أبوه وجـده

ويلوح من فخر البارودي هذا فيما أراه أن الفخر الفاخر هو ما استند إلى نسب عريق اقتفاه المفتخر وتآساه !

فخر أبي فراس الحمداني

لقد كان لأبي فراس ما يفخر به فله من الفضائل النفسية ما يتيه به على الفاخرين ، كالفروسية والتى كانت له فيها اليد الطولى حيث يقول :

فلا تصفن الحرب عند فإنها طعا مي مذ بعت الصبا وشرابي[3]

وقوله :

أرى ملء عيني الردى فأخوضه إذ الموت قدامي وخلفي المعايب[4]

---

(١) محمود سامى البارودى ١٢٥٥هـ-١٣٢٢هـ ١٨٣٧-١٩٠٤م من أسرة جركسية ذات جاه ونسب قديم ، وكان شاعرا فارسا، إذ تخرج فى المدرسة الحربية ١٨٥٤م ، وأصبح بعد وزيراً للحربية ورئيسا للوزراء ونفى إلى سرنديب لانتمائه إلى الثورة العرابية - فى الأدب الحديث لعمر الدسوقى جـ١ : ص١٦٧ وما بعدها ط:دار الفكر بمصر .

(٢) المرجع السابق جـ ١ : ص ١٦٧ .

(٣) ديوانه ص ٣٣ ط : بيروت .

(٤) ديوانه ص ٣٦.

وقوله :

ولي عند العداة بكل أرض ديون في كفالات الرماح [1]

وقوله :

جمعت سيوف الهند من كل بلدة وأعددت للهيجاء كل مجالد [2]

وله سجايا كريمة قل نظيرها عند سواه فله أن يفخر بها كقوله:[3]

شديد تجنب الآثام واف على علاته ، عف الإزار

فلا نزلت بي الجيران إن لم أجاورها مجاورة البحار

وكقوله :

رفعت على الحساد نفسي وهل هم

وما جمعوا لو شئت إلا فرائسي [4]

وكقوله[5] :

وتعاف لي طمع الحريص أبوتي

ومروءتي وقناعتي وعفافي

وكقوله[6] :

أحمي حريمي أن يبـــا ح ولست أحمي ماليه

---

(١) ديوانه ص ٦٨.

(٢) ديوانه ص ٨٨ .

(٣) ديوانه ص ١٦٩.

(٤) ديوانه ص ١٧٦.

(٥) ديوانه ص ١٩١.

(٦) ديوانه ص ٣١٥.

ناري على شرف تـأ جـ ج للضيوف السارية
يا نار إن لم تجلبـــي ضيفا فلســت بناريه

٣ـ هذا ولأبي فـراس من شرف أرومتـه ما يفـخر به كـقوله مبينا مآثرهم[١] :

لئن خلق الأنام لحسو كأس ومزمار وطنبور وعود
فلم يخلق بنو حمـدان إلا لمجد أو لبأس أو لجود

وكقوله[٢]:

إذا مررت بواد جاش غاربه
فاعقل قلوصك وانزل ذ اك وادينا[٣]
وإن عبرت بنا لا تطيف به[٤]
أهل السفاهة فاجلس ، ذاك نادينـا
ويصبح الضيف أولانا بمنزلنا
نرضى بذاك ، ويمضي حكمه فينـا

تلك نماذج يسيرة من شعره الذي ولج به روضة الفـخر الفيـحاء وسوف أعرض لكـل مجال من مجالاته الـثلاثة (الفروسية ،والـسجايا الكريمة ، وفخـره بقومه آل حمـدان) بالتفصيل مـستخرجـا دررها ناقدا ومعلقـا . كي تبدو فلسـفة الفـخر لدى أبي فـراس الحمـداني ، ذلك ما أستعين الله تعالى عليه .

---

(١) ديوانه ص ٩٧ .
(٢) ديوانه ص ٢٨٩.
(٣) جاش : هاج واضطرب . غربه : أعالى موجه « قلوصك : ناقتك
(٤) لا تطيف به : لا تحيط به ولا تقربه .

فخره بضروسيته

قال أبو فراس بعد شفائه من جراح السهم الذي أصابه وكان سبب أسره ببلاد الروم : الحرب طعامي وشرابي [1].

فلا تصفن الحرب عندي فإنها
طعامي مذ بعت الصبا وشرابي
وقدعرفت وقع المسامير مهجتي
وشقق عن زُرْق النصول إهابي [2]
ولججت في حلو الزمان ومره
وأنفقت من عمري بغير حساب [3]

تعليق ونقد :

يرينا الشاعر الحرب في نظره بأنهابمثابة الطعام والشراب ، والطعام والشراب لازمان لكل حي ، وحيث رآها كذلك فقد استعذب كل شيء في سبيلها ، ذلك ما يلوح لنا من خلال تعبيره الفائق ، حين نقف عليه متأملين ، فمثلا يروعنا قوله:(فلا تصفن الحرب عندي) فقد يبدو لأول وهلة أنه يخاف أهوالها ، لكنه يبين لنا عكس ذلك حين يعقب قائلا : (فإنها طعامي) أي أنها حبيبة لديه حب الطعام وليست بغيضة إليه ، ويبين لنا أكثر وأكثر حين يحدد زمان حبه للحرب حين يقول : (مذ

---

(١) ديوانه ص ٣٣ ط : دار بيرون للطباعة والنشر .
(٢) يشير إلى شق جلده لإخراج نصل السهم منه .
(٣) لججت : خضت اللجة ، وهي معظم الماء .

بعت الصبا) من حين ترك الصبا وميعته وما يبعث عليه من لهو وعبث والجمال كل الجمال هنا في الإسلوب الأستعاري (بعت الصبا) فلو عبر بتركت الصبا لأوهم أنه ربما يعود إليه يوما لكنه حين باع الصبا ليس براجع إليه أبدا وجميل فيه جعله البيع بين الطعام والشراب ، أي الحرب زادي مذ بعت اللهو للاهين !

وفي البيت(٢) يفصل لنا خبرته بالحرب ، حين يبين لنا إلفه لآلاتها وتجرعه مرها وصابها في قوله :

وقد عرفت وقع المسامير مهجتي

وشقق عن زرق النصول إهابي (١)

أراه عبر بهذا ليرينا أنه ليس من القوالين عن الشجاعة والبأس ، بل من الخائضين غمارها ، حتى إن (مهجته) قد عرفت على سبيل التحقيق (وقع المسامير) .

ولم يكتف بذلك بل شفع ذلك بأن النصول اخترقت جلده وشقق جلده لإخراجها ، وفي شقق دليل على الكثرة ، وزرق إيحاء بأن هذه النصول زرقاء،أي حديدة وجديدة في نفس الوقت ، وهذا يومىء إلى معاناته ،حين استخراج هذه النصول من جلده .

فقد اجتمع له إيلامان إيلام نفسي بإحساس مهجته بوقع المسامير، وإيلام جسدي : بالنصال تمزق إهابه !

وفي البيت (٣) يقول مؤكدا قوله السابق :

---

(١) المهجة : دم القلب .

وبلجت في حلو الزمان ومره

وأنفقت من عمري بغير حساب

فما أجمله حين يطالعنا في أساليب بلاغية رائعة أنه خاض الحياة حلوها ومرها . وإتيانه بفي الظرفية دلالة على تعمقه.

هذا ولا يخفى جمال الأستعارة في قوله (وأنفقت من عمري بغير حساب) وهذا يوحي بسخائه فيما لا يسخى به وهو سنى العمر وفي قوله (بغير حساب) إطلاق من كل القيود التي تجعله يبخل!

ولأبي فراس قوله [1]:

أرى ملء عيني الردي فأخوضه

إذ الموت قدامي وخلفي المعايب

تعليق ونقد:

يرينا الشاعر أنه من الشجاعة بحيث يرى الهلاك ما ثلا أمامه فيقدم ولا يحجم ، لأن في الإحجام عارا مدى الدهر !

لذا فهو يمضي إلى الردى إذ فيه الحياة والشرف .

وبالنظرة الثاقبة يسترعينا قوله : (أرى ملء عيني الردى فأخوضه) فرؤيته الردى ماثلا عينيه أمارة التحقق والتأكد وأبلغ من أي تعبير آخر كأن يقول : أرى الردى أمامي رأي العين وكأن الردى اتخذ من عينيه محلا فملأ هما ، وهنا يبدو حجم الردى ، إذ ليس باليسير ،وعلى

---

(١) ديوانه ص ٣٦.

الرغم من حجم الردى فهو يخوضه ، ولا يرتاع منه ، وفي خوضه الردى شجاعة نادرة المثال يزينها جمال الإستعارة ، وكأني به سابح ماهر للحتوف ، فما أروعه من خائض لهذا البحر المغرق والمحفوف بالمنايا !!

ويزداد الشاعر في نظرنا إجلالا حين يقول معللا (إذ الموت قدامي وخلفي المعايب) فاختياره الموت مقدما عليه أفضل من الهروب والنجاة بنفسه إذ فيه الذل والصغار .

ويزين قوله بجمال الطباق (قدامي ـ خلفي) وأخال الشاعر يعني تلميحا لا تصريحا إذ الشرف قدامي وخلفي المعايب ، فاختار الشرف على حياة الهون ، ولفرط شجاعته رأى الفرار مجمعا للعيب ، لذا نفر منه.

وللشاعر بعنوان : فارس العرب[1]

يخاطب سيف الدولة ابن عمه :

١ـ يا ضاربا الجيش بي في وسط مفرقه
لقد ضربت بعين الصارم العضب[2]

٢ـ لا تحرز الدرع عنى نفس صاحبها
ولا أجير ذعام البيض واليلب[3]

---

(١) ديوانه ص ٥٢ .
(٢) العضب : السيف القاطع .
(٣) البيض : السيوف . اليلب : الدروع من الجلود والتروس

٣ـ ولا أعود برمحي غير منحطم

ولا أروح بسيفي غير مختضب

٤ـ حتى تقول لك الأعداء راغمة

أضحى ابن عمك هذا فارس العرب

تعليق ونقد:

يلفت الشاعر نظر ابن عمه سيف الدولة إلى فروسيته التي سوف تبدو حين اللقاء فلسوف يحطم الأعداء ويخضب سيفه بدمائهم ، ولن تغنى عنهم الدروع ولا السيوف من شجاعته فتيلا لأنه سيف العرب !

فالشاعر زان الفروسية بما طالعنا به من روعة تعبير جعلته يرينا رؤس الأبطال كلمى وصرعى من بأسه رأي العين فإذا تأملنا البيت الأول يسترعينا قوله لسيف الدولة : (ياضارب الجيش بي في مفرقه) يرينا كأنه من القوة والشجاعة بحيث يضرب به سيف الدولة الجيش المغير وفي أي موقع ، إنه يصيب الجيش في مقتل حين خاله جسدا وضربه في وسط مفرقه (رأسه) وبذا تكون الضربة القاضية ، ولعله يعني هزيمة الجيش في أقوى موقع ، خاله رأسا وما فائدة جسد هوى رأسه ؟ وربما أراد قائد الجيش ، وألمح أ أبا فراس يميل إلى هذا فهو للأبطال والقادة ندّ ، بل القائد الذي يبز أنداده !

ويزيد سيف الدولة ثقة به حين يقول له : لقد صدقت فراستك حين اخترتني (لقد ضربت بعين الصارم العضب) وتبدوا الروعة هنا منَ التأكد ب (لقد) ولفظ (عين) منبيء عن القوة الفائقة الحد ، وفيه

أمارة على حسن اختياره قائدا يرمي به الأعداء ، واختياره (الصارم العضب) يؤكد ما سبق من أنه البائر القاطع لهامات الأعداء

ويزداد التعبير جمالا حين يلتفت من التكلم (يا ضارب الجيش بي) إلى الغيبة (لقد ضربت بعين الصارم العضب)

وكأني به لم يشأ أن يكرر (بي) أو عدل عنها ليرينا أنه الصارم العضب في أسلوب استعاري أخاذ .

وفي البيت الثاني :

لا تحرز الدروع عني نفس صاحبها ...

ولا أجير ذمام البيض والقلب

يرينا الشاعر ملامح فروسيته بتعبير راق في دنيا الفروسية أحسبه جديدا في معالجته ، فلم يقل أصرع عدوى ، أو أنا أشد منه ضراوة كما قال فرسان العرب . من قبله ، ولا سيما عنترة ابن شداد العبسي حيث يقول : مفتخرا بفروسيته [1] :

وحليل غانية تركت مجدلا تمكو فريصته كشدق الأعلم [2]

سبقت يداي له بعاجل طعنة ورشاش نافذة كلون العندم [3]

فعنترة يرينا أنه كثير ما عاجل قرنه من الفتيان فأرداه صريعا حتى

---

(١) تراجع معلقته بشرح المعلقات السبع للزوزنى ص ١٣٦-١٥٣.

(٢) حليل غانية : زوج شابة. مستغنية بجمالها . مجدلا : ملقى على الجدالة : الأرض . تمكو : تصفر . شدق : الشق فى الشفة العلي.

(٣) العندم : الدم أو شقائق النعمان

إنه اختار حليل الغانية ليبرزأن من يصرعهم عهدهم بالعرس قريب وغالبا ما يكون أمثال هذا في ريعان الصبا .

أما أبو فراس فينحو منحى آخر حيث يقول:

(لا تحرز الدروع عني نفس صاحبها)

أي كأن الدروع التي يتقي بها الفارس من عدوه لا تحفظه من أبي فراس ، ورائع منه اختياره (لا تحرز) أي لا تحفظ وتصون مني نفس المتدرع بها ، فأنا فوق ذلك !

ويروعنا أيضا حيث يقول :

(ولا أجير ذمام البيض واليلب)

وكما أن الدروع لا تمنع نفس صاحبها مني فإنني أيضا لا أحفظ عهدا للسيوف والتروس ، مهما تسلح وتحصن بها أقراني ، وذلك مع سابقه يبرز لنا بطريق كنائى فرط شجاعته .

هذا ورائع منه عدم رعايته للعهد هنا مع أنه مذموم ، فرعاية العهد أمارة الوفاء في شتى مناحي الحياة ، أما هنا فهي أمارة القوة ، التي تجعل الفارس لا يرعى لها عهدا لأنها رخيصة هينة أمامه ، فلايرهبه صليلها .

وفي البيت الثالث يقول :

ولا أعود برمحي غير منحطم

ولا أروح بسيف غير مختضب

بداية يلوح لنا الوهن حين يعود برمحه منكسرا ، لكننا حين ننعم النَظر كما أمعناه في البيت السابق يبدو لنا بطريق كنائي أيضا أنه

يضرب برمحه الصناديد حتى ينحطم وانحطامه هنا رائع في موقعه ، لأنه لو عاد به غير منحطم لكان ذلك علامة ضعف وتراجع عن القتال ،أما وقد أبلى بلاء حسنا فقد عاد به منحطما !

هذا ويبدو منه الجمال حين يستخدم النفي والاستثناء أي كأنه آلى على نفسه ألا يعود به صحيحا !

إن كان هذا حال رمحه فما حال سيفه ، إنه في حال أروع ، حين يروح به مختضبا من دماء أعدائه ، واختياره الأسلوب السالف (النفي والأستثناء) دليل موح بالعزم والإصرار على أن لا يروح وسيفه غير مخضوب ، إنه وإن كان الخضاب محمودا لكف النساء ، حين يتخذنه من الحناء ، فإنه من الدماء مستبشع إذ النفس تنفر من الدماء عادة !

لكن الشاعر استعان به دليلا على شجاعته بطريق كنائي ولو عاد به لامعا ناصعا لكان ذلك آية على جبنه

وفي البيت الرابع يعطينا ثمرة فروسيته :

حتى تقول لك الأعداء راغمة

أضحى ابن عمك هذا فارس العرب

أي أ الأعداء يقولونها راغمين حين تبهرهم شجاعتي وفروسيتي ، والفضل ما شهدت به الأعداء ، وفروسيه العرب لأبي فراس ليست بالشيء اليسير ،بل هي تاج على مفرقه يزينه ، وبعد ذلك هي درة في تاج سيف الدولة يتيه به على أعدائه أيضا !

هذا ويستوقفنا هنا قوله (راغمة) أي كرها لا طوعا ، وفي القول من الأعداء أمارة على سمو ما بلغ أبو فراس من شجاعته ، ولا يخفى جمال الأبيات باسم الإشارة (ابن عمك هذا) حتى لا يظن أن المقصود أحد غير أبي فراس من بني عمومة سيف الدولة فالفروسية لقب ناله بشهادة الأعداء ، وليست أي فروسية إنها فروسية العرب !

ويقول بعنوان لي عند العداة ديون :

لي عند العداة ديون [1]

١ـ ولي عند العداة بكل أرض

ديون في كفالات الرماح

٢ـ إذا التفت على سراة قومي

ولا قينا الفوارس في الصباح [2]

٣ـ يخفّ بها إلى الغمرات طود

من الأطواد ممتنع النواحي

٤ـ أشد الفارسين وإن أبروا

أخف الفارسين إلى الصياح

تعليق ونقد :

يسير بنا الشاعر في واد جديد من وديان الشجاعة فيرينا أنه طالب للأعداء و ظافر بهم أنى وجدوا ، وأنه حين يخف للقاء العدو يخف عن

---

(١) القصيدة بديوانه ص ٦٨.

(٢) سراة قومي : أسخياؤهم في مروءة (أساس البلاغة - سرو).

إختيار قومه فهو فارسهم والذائد عن حماهم حين يرام !

وأنه أشد الفرسان وأسرعهم نجدة .

وحين نتأمل الأبيات يستوقفنا ما فيها من جلة في دنيا الشجاعة من حيث الفكرة ، حين أرانا أنه دائن للعداة [1] ، وأن الكفيل بهذه المغارم الرماح ، وحيث ضمنت الرماح رقاب الأعداء فهي آتية بها صاغرة ، أما تعبيره فهو يميس في برود قشيبه من الجمال والروعة ، حيث يقول :

ولي عند العداة بكل أرض ديون في كفالات الرماح

حيث صدر (لي) المفيدة للملكية المطلقة التي لا نزاع فيها وتعقيبه ب(عند العداة) دون فاصل دال على أن الدائن لا يني عن دينه، وليبرز من خلال العندية أنها لدى العداة ، كما أفادنا بقوله (بكل أرض) العموم وأفاد تنكير (أرض) التكثير ، أي له في كل أرض (ديون) لا دينا واحدا .

هذا ولا تخفى الروعة في جعله الرماح ضامنة دون سواها ثقة منه بها ، فرماحه من القوة بحيث يمكنها تحقيق مناه .

ومما لا يخفى أيضا مراعاة النظير في (ديون ـ كفالات) .

وفي الأبيات الثلاثة الباقية يقول :

إذا التفت علي سراة قومي ولاقينا الفوارس في الصباح

---

(١) في البيت الأول .

يخف بها إلى الغمرات طود من الأطواد ممتنع النواحي
أشد الفارسين وإن أبسروا أخف الفارسين إلى الصياح

فالملحوظ هنا أن أبا فراس محل ثقة قومه ، بل سراتهم أي أهل السخاء والمروءة فيهم ، وفي تعبيره ب(التفت علي سراة قومي) إيحاء بأنه الأوحد الذي يكون ليوم البأس ، ولولا ذلك ما التفوا عليه وأحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم .

ثم يبين أنه عند ثقة قومه به ، حين يعبر بالجواب عن (إذا) الشرطية قائلا بطريق الالتفات من التكلم إلى الغيبة !

يخفُ بها إلى الغمرات طود من الأطواد ممتنع النواحي

(أخف) ولا يخفى جمال الكناية في (يخف) عن السرعة لا الإبطاء ، إذ كيف يبطئ وهو فارسهم المرجى !

وفي هذا البيت من الجمال التعبيري ما فيه ،ولا سيما في (الغمرات) فلا يسرع إلى شيء محفوف بالورود والرياحين ، وإنما يخف إلى شيء فيه مصارع الرجال ولقاء الصناديد وفيه المنايا والحتوف!

كذلك تعبيره عن نفسه بطريق استعاري (طود من الأطواد) وهل للطود من يطاوله ؟ ولم يكن طودا أي طود ، بل إنه طود (ممتنع النواحي) يمتنع على كل من تسول له نفسه أن ينال منه ، وتبدو الكناية الجميلة في (ممتنع النواحي)

وفي البيت الأخير يصف نفسه بالشدة تارة وبالخفة (السرعة)

إلى الصياح تارة أخرى ، وهاتان الصفتان تسبغان عليه أثوابا من الشجاعة حيكت خيوطها من نسج داود !

وهل يمتاز الفارس إلا بالشدة والسرعة ، وحيث وجد فيه فهو السميذع الضرغام !!

وحين أغار بنوا كلاب على بعض أطراف الشام ركب إليهم أبو فراس من منبج [1] حتى لحقهم وأوقع بهم صباحا فكتب إلى بني كلاب [2].

ألا أبلغ سراة بني كلاب ... إذا ندبت نواد بهم صباحا

جزيت سفيههم سوءاً بسوء ... فلا حرجا أتيت ولا جناحا [3]

قتلت فتى بني عمرو بن عبد ... وأوسعهم على الضيفان ساحا

قتلت معوّدا علل العشايا ... تخيرت العبيد له اللقاحا [4]

ولست أرى فسادا في فساد ... بحر على طريقته صلاحا

تعليق ونقد :

هذه رسالة موجعة يرسلها أبو فراس إلى بني كلاب بعد أن أغار عليهم صباحا فقتل ذؤابتهم وواسطة عقدهم والمترف فيهم ، الأمر الذي جعل نساءهم يندبه ، ومع ذلك فلا يرى الشاعر فيما ألحقه ببنى كلاب

---

(١) منبج : اسم بلدة قريبه من حلب بالشام .

(٢) ديوانه ص ٧٣.

(٣) الحرج والجناح : الإثم .

(٤) علل العشايا : شرب الماء مرة بعد مره، يريد أنه يعيش فى رفاهية من العيش اللقاح : الواحدة لقحه : الناقة الحلوب .

بأسا ، لأنه جازى سفيههم بما يستحقه ورأى في قتله صلاحا !!

ونلمح من هذه الرسالة الشعرية جدة وابتكارا في الإيلام ، إذ ليس بالقوم حاجة إلى رسائل بعد أن أذاقهم الهوان وجرعهم كئوس المنايا ، وإخال أنه قتلهم جميعا بقتل سيدهم ، لكن أبا فراس شاء أن يجدد عليهم أحزانهم ، ولم يكتف بالرسالة التي سطرها من دمائهم ، بل شفعها بأخرى بمداد من الظفر والغلبة وأحسبه يبغي من وراء رسالته هذه أن لا تجف مآقيهم من دموعها وربما بكوا دما ، وبذا يكون قد نال بغيته بإسالته الدماء من سيدهم قتيلا ، والدماء أيضا من مآقي من بقي منهم حيا !

والعجيب أنه لا يوجه الرسالة لأي فرد فيهم وإنما يوجهها لوجهائهم وسراتهم ، واختياره (ألا) يوحي بأريحيته حين ينبههم بصيغة البلاغ ، ليدرك القوم من المرسل ؟

وتعبيره بـ (إذا ندبت نوادبهم صباحا)

مشعر بالعار عليهم ، وأحسبه لا يفتأ ينكأ جراحهم التي لا يريد لها أن تلتئم ،فنسوة القوم حين يجتمعن نادبات صباحا ما أصاب قومهم كارثة وطامة كبرى . إذا حدث ذلك من نسائكم يا سراة بني كلاب وتعدونه ظلما فلا أعده ظلما ولا بأس ولا جناح عليّ لأني :

جزيت سفيههم سوْأ بسوء فلا حرجا أتيت ولا جناحا

فتعبيره (جزيت سفيههم سوءا بسوء) مشعر بأن الجزاء كان وفاقا ، واختياره (سفيههم) احتراس من أن يقال إنه يجزى الناس سوءا

فالسفيه تبطل حجته لسفاهته،ولا تخفى الروعة في (سوءا بسوء) على حد قوله تعالى : (وجزاء سيئة سيئة مثلها ...الآية)[1]

وفيها المشاكلة رائعة .ولذلك يعقب قائلا : (فلا حرجا أتيت ولا جناحا) أي لا تثريب علي

ويبدو الفخر جليا في البيتين (٣، ٤) حين يقول :

قتلت فتى بني عمرو بن عبد وأوسعهم على الضيفان ساحا

قتلت معودا علل العشايا تخيرت العبيد له اللقاحا

فقوله(قلت فتى بن عمرو عبد) موحي بأنه قتل سيدهم المرجى وموح أيضا بأنه حين قتل فتاهم أصبحوا بلا فتى ليوم الكريهة فيهون على الناس أمرهم بعد ذلك ، كجسد بلا رأس !!

ولم يكن فتاهم شجاعة ، بل كان أكرمهم وأنداهم يدا ! ويبدو أن الشاعر التذ للفعل (قتلت) فكررها في البيت الرابع وصدر بها البيت كسلفه ،فنراه يعدد صفات سيدهم ليرضى شجاعته التي تختار الجياد من الناس قتلى وليزيدهم (أعداءه) حسرة وألما على ما أصابهم فالمعود الشرب بعد الشرب ، والذي تتخير له العبيد اللقاح التي يشرب ألبانها مشعر بثرائه وأنه مخدوم ووجيه فى قومه ، ولفظ معود ، والعبيد،اللقاح كلها مؤكدة لثرائه ونعمته ، فالمعود: عريق فى عادته منذ نعومة أظفاره، وليس الثراء طارئا عليه . وجمع العبيد موح بكثرتهم . وتخيير اللقاح أمارة على كثرة الإبل لديه .

---

(١) سورة الشورى الآية : ٤٠ .

ويلوح شيء آخر هو أن سيدهم هذا كان محبوبا من خدمه حيث إنهم يتخيرون له أجود الأنواع من النوق ليشرب ألبانها وفي سقيهم له مرة بعد مرة دليل الطاعة والحب !

هذا ويختم هذه الأبيات بما رآه صوابا في نظره قائلا :

ولست أرى فسادا في فساد يجر على طريقته صلاحا

كأني بأبي فراس يدافع عن نفسه أن يقال عنه إنه قتّال بغير حق أو باديء بالعدوان على الناس ، بدليل أنه ينفي عن نفسه مرآة الفساد وإن أعتبر فسادا ،لأن في طيه صلاحا !

لأن بني كلاب أغارو واعتدوا فكان جزاؤهم ما حاق بهم لتأمن البلاد من إغارتهم مرة أخرى.

وألمح من هذا أن أبا فراس لا يحب العدوان لذات العدوان وإنما يدافع عن الحق حينما يرام حماه .

ورائع منه بيان هدفه مما يظن أنه فساد ، إذ هو الدواء الناجع حيث (يجر على طريقته صلاحا) وفي تنكيره الصلاح بيان للكثرة والعظمة ، وهل هناك أسمى من قمع المفسدين وردهم على أعقابهم خاسرين لتأمن البلاد والعباد من المعتدين وكأني بالشاعر متأسيا بقول العرب (القتل أنفي للقتل) أو قوله تعالى : ﴿ ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون ﴾ [1] هذا ويزين البيت ما فيه من طباق بين (فساد وصلاح) .

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٧٩.

ولما خرج بن أخت ملك الروم في جيشه إلى نواحي منبج صادف أبا فراس يتصيد في سبعين فارسا ، فأراده أصحابه على الهزيمة فأبى وثبت يقاتل حتى أثخن بالجراح وأسر، قال قصيده يخاطب فيها سيف الدولة طالبا منه افتداءه ، من غياهب السجون الرومية ، حسبنا فيها ما قاله عن شجاعته [1] :

وما الأسر مما ضقت ذرعا بحمله
وما الخطب مما أن أقول له قدي [2]

ولكنني أختار موت بني أبي
على صهوات الخيل غير موسد

وتأبي وآبي أن أموت موسدا
بأيدي النصاري موت أكمد أكبد [3]

ويخص نفسه مبينا مكانتها لدى قومه :

متى تخلف الأيام مثلي لكم فتى
طويل نجاد السيف رحب المقلد [4]

متى تلد الأيام مثلي لكم فتى
شديـــدا على البأساء غير ملهد [5]

---

(١) ديوانه : ص ٨٢ -٨٦.
(٢) قدى : حسبي .
(٣) إلا كمد : التغير اللون ، الأكيد : المصاب في كبده.
(٤) نجاد السيف : حمائله وطولها كناية عن طول القامة. رحب المقلد : واسع مابين الكتفين
(٥) الملهد : الذليل الضعيف .

فإ تفتدوني تفتدوا شرف العلا وأســـرع عـــواد إليها معود
وإن تفتدوني تفتدوا لعلاكم فتى غير مردود اللسان أو اليد
يدافع عن أعراضكم بلسانه ويضرب عنكم بالحسام المهنـد

تعليق ونقد:

يبدو من الشاعر التجلد وقوة الاحتمال ، فما الأسر بضائره ، لكنه يخشى أن يطول أسـره في بلاد الروم فتأتيـه المنية فيوسـد بأيد النصاري كمـا يموت ذوو العلل ، ومراده الخروج لمواصلة القتال ، حـيث يفضل الموت له ولبني جلدته من حمدان على صهوات الخيل-غير موسد ين !!

ويبرز الشاعر مكانتـه لدى قومه باستبعاد أن تلد الأيام لهم شـبيهه شجاعا مقداما غير هياب ولا وجل .

الأمر الذي يجـعلهم يفتدونه صـونا لأعراضهم فـهو الذائد عنهم بلسانه وبسنانه !!

هذا ويقفنا الشاعر على تجلده للأمر حيث يطالعنا بقوله :

(وما الأسر مما ضـقت ذرعا بحمله) نافـيا أنه عجز عن احـتماله ويتبع هذا بما يفيـد احتماله أيضا للخطب ، حـيث يقول : (وما الخطب مما أن أقول له: قدي)

فمـا أروعه حين صور الأسر حـملا ثقيلا لا يضـيق به ذرعا وحين استنطق الخطب ونفى أن يقول له: كفاني !!

وما أروعه حيث يقول في البيتين (٢، ٣) :

ولكنني أختار موت بني أبي

على صهوات الخيل غير موســد

وتأبى وآبى أن أموتَ موسداً

بأيد ى النصاري موت أكمد أكبد

فالجمال باد من اختياره الموت على صهوات الخيل ، تلك ميته الشجاعة ، وغير موسد توحي أيضا بموتة الأبطال لا ميته الجبناء الذين يوسدون في أحلاس بيوتهم والتي أنف منها خالد بن الوليد رضي الله عنه حيث مات على فراشه فقال لما احتضر باكيا : لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية ثم ها أنذا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت العير أو البعير فلا نامت أعين الجبناء [1] !

كما لا تخفى روعة خطابه سيف الدولة مستعطفا : وتأبى وأبى .....البيت

حيث مس شغاف قلب سيف الدولة ، إذ هما من دوحة واحدة أي لا تقبل ولا أقبل أنا ميتة الجبناء موسدا بأيدي أعدائنا الروم .

ثم يسترعينا قوله في البيتين (٤، ٥) مكررا الأستفهام :

متى تخلف الأيام مثلي لكم فتى طويل نجاد السيف رحب القلد ؟

---

(١) الاستيعاب لابن عبد البر جـ ٢ : ص ٤٣٠ ط : دار الجيل بيروت / تحقيق البجاوى ويراجع :سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبى جـ١ : ص ٣٦٦-٣٨٤ ط : مؤسسة الرسالة بيروت / تحقيق حسين الأسد.

متى تلد الأيام مثلي لكم فتى شديد على البأساء غير ملهد ؟

وفي البيتين ألوان من ضروب جمال التعبير وروعة التأثير فالبيتان قد صدرا بالأستفهام المنبئ عن استبعاد أن يولد لهم فارس مغوار مثله ، وإسناد (تخلق وتلد) إلى الأيام إسناد مجازي

والتعبير ب (طويل نجاد السيف ورحب المقلد) أسلوب كنائي رائع عن طول قامته وسعة ما بين كتفيه وهاتان الصفتان من أبرز الصفات التي تكمل بها الفروسية ، وحيث اكتملت الصفات الجسديه دلف إلى الصفات النفسيه للفارس وأبرزها ما جاء في قوله (شديد على البأساء غير ملهد) فالبأساء شديد عليها بالاستعلاء، ثم هو لا يذل ولا يضعف وقد اختار فتى ولم يختر رجلا فقد يكون رجلا ضعيفا ، فحقا مثل هذا الفتى (المكتمل الفتوة) مثله عزيز في الناس ولذا يجب على قومه افتداءه ليكون لهم به عزا ومنعة حيث يقول :

فإن تفتدوني تفتدوا شرف العلا وأسرع عواد إليها معود

وأن تفتدوني تفتدوا لعلاكم فتى غير مردود اللسان أو اليد

فجميل منه التكرار المقترن بالشرط وأجمل منه الجواب ، حيث إن الإفتداء معه شرف العلا الذي عرفتم به يا بني حمدان ، ويعني نفسه ، إذ هو معود على المعالي والذرا ، كما أنه الفتى القوال الفعال لا يرد له لسان أو يد وما أروع المجاز المرسل هنا .

ثم زاد الأمر وضوحا أي بضرورة حاجتهم إليه حيث يقول عن نفسه :

يدافع عن أعراضكم بلسانه ويضرب عنكم بالحسام المهند

جميل من الشاعر الإلتفات إلى الغيبة بعد التكلم ، فلم يقل أدافع وإنما قال يدافع ، وفي الدفاع معنى اليقظة والحذر والثأر للكرامة حين يقترب من حماها مغير ، فرائع منه الدفاع باللسان عن أعراض قومه ، ولا جرم فهو شاعرهم ولسانهم المعبر والذائد عنهم ، كما أنه رائع أيضا حيث يقول : (ويضرب عنكم بالحسام المهند) حين البأس

ويلوح الصدق من جنبات عبارته فهو لسانهم وسيفهم حقا ، فما رام أحد أعراض قومه إلا وسلقه بلسانه الحاد لأن الأعراض ينال منها باللسان غالبا ، والحسام المهند للوقائع وميادين الوغى .

فما نبا سيفه ولا كبا جواده ، ولا احتبس لسانه !!

وقال عن نفسه في الهيجاء [1] :

١ـ إذا شئت جاهرت العدو ولم أبت

أقلب فكري في وجـــوه المكائد

٢ـ صبرت على اللأواء صبر بن حرة

كثير العدا فيها قليـــل المساعـد

٣ـ فطاردت حتى أبهر الجري أشقرى

وضاربت حتى أوهن الضرب ساعدي [2]

---

(١) ديوانه ص ٨٨-٨٩.

(٢) أبهره : قطع نفسه . أشقرى : فرسى الأشقر .

٤ـ جمعت سيوف الهند من كل بلدة

وأعددت للهيجـــاء كل مجالد

٥ـ وأكثرت للغارات بيني وبينهم

بنات البكيريّات حـــول المـزاود[1]

٦- مرير على الأعداء ، لكن جاره

إلى خصيب الأكناف عذب الموارد

٧ـ منعت حمى قومي وسدت عشيرتي

وقلدت أهلي غر هـــذي القلائد

٨ـ خلائق لا يوجدن في كل ماجد

ولكنهـــا في الماجـــد ابن الأماجد

تعليق ونقد:

حـقيـقة لايصف الإنسـان إلا نفســه ، فـأبو فراس يميط اللثـام عن صفـاته التي طبع عليها ، ومـا أراه يمزجها بزيف لإبائه وترفـعه عن دنايا الأمـور، فـيـرينا أنه صبـور على الشـدائد والمحن ، لأنه ابن حـرة ولم يتدنس نسبه ، كما يجاهر العدو وتلك من صفات الفرسان الكرام الذين لا يبيتـون يدبرون المكائد ويقفنا على بلائه في ا لحروب فـقد طارد حتى

---

(١) بنات البكيريات : أراد بها الخيول ، ولعل هذه اللفـظة منسوبة إلى البكيرة وهي ناحية من نجد / ديوانه ص ٨٨، المزاود : جمع مزود ما يوضع به الزاد وأراد هنا العلف.

انقطع نفس فرسه وضارب حتى أضعف الضرب ساعده، وجمع سيوف الهند الباترة من كل بلد وأعد للهيجاء لبوسها ، وأكثر الإغارات على الأعداء ، وذلك بإنتقاء أجود الخيول .

ودلف إلى نفسه التى سوف تعطي الخيول وتضرب بالسيوف فآرانا أنها مريرة على الأعداء ، على أنها موطأة الأكناف للجار قري وحماية ، لذلك منع حمى قومه وساد عشيرته وقلدهم قلائد العز والشرف .

واختتم الأبيات بثناء على نفسه هو به جدير ، حين رأى أن هذه الخلائق لا توجد في كل ماجد ـ وخص الماجد بالذكر دون بقية الناس ـ ولكنها وجدت في الماجد ابن الأماجد أي وجدت فيه هو فليس ماجدا أي ماجد ، لكنه سليل الأ ماجد من آل حمدان ! هذا ويبدوا لي من قوله :

إذا شئت جاهرت العدو ولم أبت

أقلب فكري في وجوه المكائد

إنه من الحنكة وسداد الرأى بحيث يمكنه أن يجاهر العدو حين يريد ، ولا يحتاج إلى تفكير في أنواع المكائد التي يكيد بها العدو ، ولايبعد أن يكون مقصوده الجانب الخلقى مع العدو ، فهو لا يفاجيء

العـدو ويدبر له المكائـد بليل بل يجـاهره وذلك نعـده من أدب الحـرب الذي نلمســه لــدى أبي فراس إذ لـه خلق يمنعه مـن الخداع حـتى مع العدو !!

ولا يخفى الجمال البلاغي في (وجوه المكائد) و(أقلب فكري)

وفي البيت الثـاني يرينا أنه صبور على الـشدائد غير جـزوع وعزا ذلك إلى أن طيب منبته غرس فيـه هذه الصفـة وإن لم يقل أنا ابن حرة فأصـبر على الشدائد ، فأثـبتها على طريق التـشبيـه ، ولكي يبرهن على صدق ذلـك ويؤكده عـبر بقـوله إنني :(كثـير العـدا... قليل المسـاعد) وتبدو روعة المقابلة هنا

وفي البيت (٣) :

يستوقفنا قوله : (فطاردت حتى أبهر الجري أشقرى)

حيث يبدو جمال التعبـير في فطاردت للمفاعلة بينه وبين فرسان صناديد أنداد له وأكفاء ، ومع ذلك فيمـا يبدو حاز قصب السبق بدليل (حتى أبهر الجرى أشقري) حيث انقطع نفس فرسه وذلك يعني بطريق كنائي أنه بلغ الغاية .

كما يسترعي انتباهنا تعـبيره في الشطر الثاني من البيت(وضاربت حتى أوهن الضرب)

حيث يلوح جمال التعبير في (ضاربت) للمفاعلة بينه وبين شجعان حنكتهم الحروب فنال منهم مبتغاه ، ذلك ما نلمسه من قوله: (حتى أوهن الضرب ساعدي) وذلك يثبت له بطريق كنائي جميل أنه الظافر ، كما أن ذلك يومىء إلى كثرة بلائه وخوضه الحروب ، وضربة واحدة من أبي فراس تردى العدو صريعا ! فما بالنا لو ضارب حتى أوهن الضرب ساعده لا شك أن الفوز يكون ما شيا فى ركابه !!

وفي البيت (٤) يسترعينا قوله :

جمعت سيوف الهند من كل بلدة

وأعددت للهيجاء كل مجالد

إذ جمع السيوف الهندية دون سواها ، وليس من بلدة بعينها ، بل من كل بلدة أمارات واضحة وبراهين ساطعة على تحطيم هذه السيوف على هامات الأعداء وأنه كلما انكسر سيف منتصرا به بحث عن آخر حتى كادت سيوف الهند أن تنفد وما نفدت شجاعة وبسالته .

كما يبدو من إعداده كل مجالد للهيجاء أنه اليف حروب أيضا ونقادة في الاختيار . وفي (أعددت)ما يوحي بأخذ الأمور مأخذ الجد فلا يدخل حربا بغير زاد لها ، ولفظ (كل) يدل على العموم كما دل عليه سلفه في صدر البيت (جمعت سيوف الهند من كل بلدة) .

والعجيب أن أبا فراس لا يرضى بالدون أبدا ، فاختار لها

سيوف الهند لما لها من صلابة وقوة عن سواها ،وأعد المجالد ، لا الرعديد ثم الخيول فهو لا يختار الدون فيها بل يختار(بنات البكيريات) لما لها من قوة في الكر والفر نظرا لكثرة غاراته ، فلو كانت من غير بنات البكيريات ما صمدت وما نال مراده من أعدائه :

هذا ويروقني قوله في البيت (٦) واصفا نفسه حق وصفها :

مرير على الأعداء لكـــــن جاره

إلى خصيب الأكناف عذب الموارد

فما أجمل المرارة هنا مع أنها مكروهة في كل موطن وسرّ جمالها أنها على الأعداء وجميل فيه استعمال (على) إذ هو عال عليهم ، وحتي لايفهم أن المرارة ديدنه استدرك قائلا : (لكن جاره) فجاره ينال كرمه ورعايته .

ويبدو جمال تعبيره في (خصيب ـ عذب الموارد)

كما يبدو الجمال البلاغي في الألتفات إلى الغيبة (جاره) ولم يقل جاري وإسناد الخصيب إلى الأكناف إسناد مجازي رائع ويبدو جمال الكناية في (عذب الموارد)

وجميل منه أن يجمع بين المرارة والعذوبة وكلتاهما جميلة في موقعها ، فاختياره لفظ (مرير) على وزن فعيل يوحي بالمبالغة وهذه تعكس الجانب النفسي للشاعر مع عدوه وهي أنكى ألما للعدو من السيف والفرس ، فقد ينبو السيف ويكبو الفرس لكن النفس الأبية لا تهن ولاتجبن !!

كما أن رعاية الجار وإكرامه من أنبل الصفات عروبة وإسلاما! فالعرب من كريم عاداتهم حماية الجار وإكرامه وجاء الإسلام مؤكدا ذلك ففي القرآن الكريم آيات تحث على رعاية الجار منها قوله تعالى : ﴿ واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامي والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب .....الآية ﴾ النساء ـ ٣٦.

ومن الأحاديث الشريفة ما روى عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحفظ جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت) [1] رواه أحمد والطبراني .

ويخلص من صفاته بنتيجة هي ما جاءت في البيت (٧)

(منعت حمى قومي وسدت عشرتي) حقا لقد منع حمى قومه وساد عشيرته بكفاءة ، ولم يفعل ذلك وحسب ، بل رفع ذكرهم عالبا حيث يقول : (وقلدت أهلي غير هذي القلائد) .

فجميل منه ما ساق لأهله من خير حين قلدهم قلائد المجد وجدير بأهله أن يفخروا به كما فخر هو بهم وما أروع الأسلوب الأستعاري أو الكنائي في قوله (قلدت) ويتجلى الفخر في أبهى صوره حيث يقول مختتما هذه المآثر :

خلائق لا يوجدن في كل ماجد ولكنها في الماجد ابن الأماجد

---

(١) يراجع مجمع الزوائد للهيثمي جـ٨ : ص ١٨٠ ط : مؤسسة المعارف بيروت .

ينفي أن توجد هذه الصفات في كل ماجد ،ولكنها وجدت فيه هو لأنه ليس ماجدا بما أتي من حسن الفعال ، بل بما ورثه عن آبائه الصيد الأماجد :

ورائع منه الإلتفات هنا ، وأحسبه يعني هذا ، فليس بحاجة إلى أن يقول ولكنها توجد فيّ ، لأن هذا أصبح وقفا عليه .

هذه هي الشجاعة ، وهذا هوثمنها ،إذ لم يقصد من شجاعته مغانم من مال أو نعم ، بل نال الشرف والسؤدد لنفسه ولقومه ، وحتى اليوم لم ينل من مجده وشرفه كر الليالي ومرور الأيام وكأنها بالأمس فلم تبل ولن ينالها البلى ، حيث ارتدت ثوب الخلود !!

ومن فخره بفروسيته الممزوج بالتعفف عن الأسلاب والسبايا قوله [1] :

وإني لجرار لكل كتيبة
معودة ألا يخل بها النصر [2]
فأظما حتى ترتوي البيض والقنا
وأسغب حتى يشبع الذئب والنسر [3]
ولا أصبح الحيّ الخلوف بغارة
ولا الجيش مالم تأته قبلي النُّذُرُ [4]
وحيّ رددت الخيل حتى ملكته
هزيما وردتني البراقع والخُمر [5]

---

(١) ديوانه ص ١٥٩، ١٦٠.
(٢) بخل بها : بتركها .
(٣) أظمأ : أعطش . أسغب : أجوع.
(٤) الحي الخلوف : الغائبون رجاله .
(٥) البراقع : جمع برقع : ما تغطى به المرأة وجهها، الخمر: الواحد خمار : ما تستر به المرأة رأسها .

وساحبة الأذيال نحوي لقيتها

فلم يلقها جافي اللقاء ولا وعر [1]

وهبت لها ما حازه الجيش كله

ورحت ولم يكشف لأبياتها ستر

تعليق ونقد:

يرينا الشاعر أنه من القوة والشجاعة بحيث يقود الكتائب التي لا يتركها النصر فكأن النصر يمشي في ركابه ثم إنه يظمىء نفسه لترتوي البيض والقنا من دماء أعدائه ، كما أنه يجيع نفسه ليشبع الذئب والنسر من لحوم صرعاه !

ويقفنا على لون جديد آخر من أدب الحرب هو أنه لا يغزو حيالا رجال فيه ولا جيشا إلا بعد أن ينذره بزحفه عليه !

وإذا أغار على قوم أغار عليهم صباحا﴿ فالمغيرات صبحا﴾ سورة العاديات ،حتى يبغتهم فيحوز النصر، وهذه أمارة القروسية المحنكة .

ويرينا لونا آخر جدير بالإحترام هو أنه ربما ملك حيا وأخضعه لسلطانه لكن شيئا ما يستوقفه ويرده عن مراده ، هو النساء ذوات البراقع والخمر ، حتى إنه ليجد فتاة منبخترة ساحبة أذيالها تتجه نحوه مستغيثة خوف السباء ، فاستقبلها استقبالا حسنا ، ثم وهبها ما غنمه الجيش كله وعاد ولم يصبها (الفتاة)أي مكروه عفة منه في المال والعرض ألا ما أكرمه !

---

(١) جافي اللقاء ولا وعر : استقبلها استقبالا حسنا ولم يكن جافيا.

هذا ويستوقفنا ما في الأبيات من ملامح جماليه أسلوبيه أو بلاغية ،فمثلا يروعنا قوله (جرار) إذ المبالغة منبئة عن كثرة قيادته للكتائب ، وليست أية كتائب ،فإنها كما يعبر عنها هذا التعبير الفائق (لكل كتيبة معودة ألا يخل بها النصر) إذ النصر لا يتركها .

وفي أظماء وترتوي يبدو الطباق كما يبدوا أيضا بين أسغب وتشبع وفي ري البيض والقنا مجاز غير خاف وأري المقصود من ظمأ الشاعر وسغبه : تحمله الجوع والعطش ليتحقق ما يثلج صدره وهو هزيمة الأعداء ، و إحالة دمائهم شرابا للبيض والقنا ولحومهم طعاما للذئاب والنسور !

ولا تخفى الروعة في قوله (طلعت عليهابالردي أنا والفجر)

فطلوعه على هذه الدار بالردي متزامنا مع طلوع الفجر تعبير منبيء عن البكور وبذلك أحسبه مستوحيا ذلك من القرآ ن ﴿ فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين ﴾ الصافات : ١٧٧ ،ليأخذهم أخذ عزيز لا بقاء لهم بعدها !

ويروعنا من الشاعر قوله (وردتني البراقع والخمر) إذخال البراقع والخمر ـ وهما مجاز مرسل فالبراقع والخمر لاتردن بذاتيهما وإنما المرتديات لها وهن جماعة النسوة ـ ذواتي قوة بحيث تردان الفارس الضرغام ، وأحسب أن أبا فراس رد من النسوة بسيف الحياء لما فطر عليه من أدب وعفة ، ذلك ما يوضحه أجمل توضيح وأجلى بيان قوله بعدها .

وساحبة الأذيال نحـــوي لقيتهـــــا

فلم يلقهـــا جافي اللقاء ولا وعر

فتروعنا الكناية ، كما يروعنا الإلتفات من التكلم (نحوي لقيتها) إلى الغيبة (فلم يلقها جافي اللقاء ولا وعر) .

وأحسبه في الأسلوب متفاخرا ، فهذا فخر بمعالي الأمور أراها عفة وأحتشاما في وقت يتمني فيه غيره سبي النساء ، لا الإحسان وإكرام وفادتهن ،، ولقد أعطاها غنائم الجيش .

وهبت لها ما حازه الجيش كله

ورحت ولم يكشف لأبياتها ستر

ما أروع الهبة حينئذ إذ هي هبة القادر ، وجميل منه قوله : رحت ،وأجمل منه (ولم يكشف لابياتها ستر) إذ أبان عن عفته بطريق كنائي رائع يفيض روعة ووجلالا ، إذ هي عفة القادر وحيث مزج الفروسية بالعفة فهذه فيما أحسب من فرائده !

فخره بسجاياه الكريمة

يقول في هذا المجال : [1]

شديد تجنب الآثـــــام واف على علاته ، عف الإزار
فلا نزلت بي الجيران إن لـــم أجاورها مجاورة البحار
ولا صحبتني الفرســـان إن لم أصاحبهـا بمأمون الفرار

تعليق ونقد :

رائع من الشاعر أن يفتخر بشدة تجنبه للآثام لما فيها ، أي في اقترافها من نقص في المروءة ، وهو جد حريص أن يكون كامل المروءة!

كما أنه وأف والوفاء منقبة لا يتحلى بها إلا من سمت نفوسهم ، حتى إن الله تعالى أثنى عليهم في كتابه الكريم في آيات عديدة منها : ﴿ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ....الآية ﴾ البقرة ١٧٧

ومها ﴿ وأوفو ا بالعهد إ ن العهد كان مسئولا ﴾ الإسراء ٣٤

وتوج هاتين ا لصفتين بقوله (عف الإزار) إذ رفعته إلى أعلى المنازل .

وبعد أن أبان لنا صفاته التي اتسم بها وفطر عليها دلف إلى مناقب أخرى تعد ضميمة إلى ما سلف عليه وهي :

الإحسان إلى الجيران ولا يحسن إلى جاره إلا كل محسن كريم هذا ويحسن صحبة الفرسان بما تعارف عليه من ثبات ونجدة

---

(١) ديوانه ص ١٦٩

تلك سجاياه في الأبيات الثلاثة وحسبنا أن نقف أمامها متأملين ما فيها من جمال التعبير وروعة التأثير ، ،لا سيما في قوله : (شديد تجنب الآثام) فتجنب الآثام كاف في التعبير عن بعده عن الآثام ، لكنه لمزيد حرصه صدر البيت (بشديد) التي تفيد الشدة ، والكثرة معا (المبالغة) فهو مبالغ في شدة البعد عن الآثام .

كما يلوح لي من قوله (واف على علاته) أن الوفاء ديدنه وملازم له في كل أحواله واختياره (واف) على يفي مثلا دليل الثبوت والدوام

ومما يروعنا (عف الإزار) حيث أفاد نا بطريق كنائي جميل عفته ونأيه عن الفواحش ومواطن الريبة .

ومن الجمال قوله :

فلا نزلت بيي الجيران إن لم أجاورها مجاورة البحار

فكان يمكنه أن يعبر عن حسن معاملته جيرانه بقوله ؛ وأحسن إلى جيراني .....إلخ

لكنه راعنا بهذا التعبير الفائق حد الروعة ، حيث يدعو على نفسه بعدم نزول الجيران به إ ن لم يجاورها مجاورة البحار .

وهذا الدعاء عظيم لأن أمثال أبا فراس محط الرحال ومنزل الضيفان فخليق به أن يجاور ولا ننفر منه الجيران لسوء مجاورته . وهذا عظيم على نفس أبي فراس الحمداني .

ومجاورة البحار فيها ما فيها من جمال بلاغي فألمح فيهاتشبيها

رائعا ، كما أشم رائحة الكناية الجميلة أي كرم مثل فيض البحار الزاخرة باللآئي والدرر ..إلخ

فهو يفيض على جيرانه كرما مثل عطاء البحار ، وجمع ولم يفرد حيث لم يقل كمجاورة البحر ، والبحر ليس بالقليل عطاؤه لكنه أرانا كرمه من الكثرة بحيث يحاكي البحار !!

ولا نعدم في البيت الثالث جمالا حيث يقول :

ولا صحبتني الفرسان إن لم أصاحبها بمأمون الفرار

يلوح لنا حسن تعبيره في الدعاء على نفسه بعدم صحبة الفرسان له ـ وهذا مؤلم وموجع جدا لنفس أبي فراس ـ وهو الفارس المغوار اللهم إلا إن (صبحهم بمأمون الفرار) وأحسبه يعني نفسه فهو لا يفر عن اللقاء أبدا .

وربما قصد بالصحبة شيئا آخر هو منازلة الفرسان فلا لقيه منازلة الفرسان عبر عنها بالمصاحبة بطريق استعاري جميل ، فيكون مراده فلا لقيت فرسانا إن لم يجدوني ثابتا واقفا أمامهم أصارعهم ولا أفر فرار الجبناء!!

هذا ولا يخفى جمال تعبيره عن عدم الفرار بقوله : (بمأمون الفرار) ففي مأمون جمال وروعة إذ هو آمن من الفرار فليس من شأنه ولا من جبلته

وألمح الالتفات ، كما تروقني الكناية في مأمون الفرار . فما أروعه فارسا مغوارا !

وتلك وإن كانت من صفات الفروسية إلا أن فيها سجايا كريمة ، حيث الثبات وذلك من نفس أبية تأبى الذلة في الفرار وتؤثر الموت ـ ولو كان ـ في الثبات .

وربما كان مراده أقابلهم بفرس ليس من عادته الفرار كما اعتاد ممتطيه الذي يخوض به غمار الموت .

قد يكون هذا أو ذاك ويقوى الأول عند ! ! أحسب ذلك .

ولابي فراس بعنوان :

جالس على قمة المجد[1]

حيث يقول :

رفعت على الحساد نفسي وهل هم
وما جمعوا لو شئت إلا فرائس
أيدرك ما أدركت إلا ابن همة
يمارس في كسب العلا ما أمارس
يضيق مكاني عن سواي لأنني
على قمة المجد المؤثل جالس [2]
سبقت وقومي بالمكارم والعلا
وإن رغمت من آخرين المعاطس [3]

---

(١) ديوانه : ص ١٧٦ .
(٢) المؤثل : الأصيل .
(٣) المعاطس : الأنوف .

تعليق ونقد:

يرى الشاعر نفسه ساميا على حساده ، لأنهم وما معهم لو أراد لافترسهم ، كما يري الشاعر أنه قد بلغ من علو المكانة ، ما يجعله جالسا على قمة المجد العريق ، وهذا ما يصعب على غيره أن يجلس مجلسه ، فمن له مثل همته ــ ومن له مثل سبق الشاعر وقومه بالمكارم؟ إنهم سبقوا على رغم الحاسدين !

هذا ويستوقفنا ما في الأبيات من جودة تعبير وروعة تصوير ، ولا سيما في قوله :

(رفعت على الحساد نفسي) جميل منه رفع نفسه عاليا على الحساد فهم دونه ، والرفع شيء حسي لشيء ذي قدر هو نفسه وفي ذلك معاناة ، حيث ترفع عن الدنايا ، الأمر الذي جعله بذلك ساميا ، واختياره (على) موح بالأستعلاء عليهم ، واكد علوه عليهم مدللا على ذلك بقوله :

(وهل هم وما جمعوا لو شئت إلا فرائس) رائع منه التعبير بطريق الأستفهام ، ورائع أيضا عطف (ما جمعوا) كأنهم وما يملكون لو أراد لافترسهم وجميل جدا قوله (لو شئت) لما يعكس من أمارات قوته ،وفرط مشيئته ، وفي (فرائس) أجمل بيان على أن الحساد ما كان لهم أن يحسدوه لأنه ـ لو شاء ـ لأخذهم أخذ عزيزغالب !!

هذا والمح في قوله عن الحساد (وما جمعوا) أنهم من رعاع الناس ولا عراقة لديهم في حسب أونسب ، إذ جمعوا المال ولم يرثوه

كابر عن كابر ، فما لهم طريف إذن لا تليد !

ويروعنا قوله في البيت الثاني :

أيليرك ما أدركت إلا ابن همة

يمارس في كسب العلا ما أمارس

حيث صدر البيت بالإستفهام المنبيء عن إنكار وصول إنسان وصوله ، وأراه يعني بابن الهمة نفسه وفي (ابن الهمة) استعارة جميلة وأجد في أدرك معنى جميلا إذ يوحي ببذل الجهد للوصول إلى غاية صعبة المنال .

ويبدو بذل الجهد أيضا في قوله (يمارس في كسب العلا ما أمارس) فالممارسة تقتضي أناة وحنكة وجلدا ليصل بها ممارسها إلى كسب العلا ، وجميل أيضا إضافة الكسب إلى العلا ، لأن العلا أفضل ما يكسبه الإنسان .

وفي البيت الثالث :

يضيق مكاني عن سواي لأنني

على قمه المجد المؤثل جالس

نجد روعة التعبير وجماله في (يضيق مكاني عن سواي) فلو قال لا يملأ هذا المكان سواي ما بلغ مبلغ قوله (يضيق) لأن في الضيق عدم سعة لسواي في مكاني ، ولو أراده إنسان آخر لا ستعصى عليه ، فما أروع الجمال البلاغي حيث الكناية البالغة حد الروعة .

ويروقنا تعليله لعدم أهلية سواه لمكانه حيث يقول :

(لأني على قمة المجد المؤثل جالس).

لم يختر أي مكان لجلوسه ، وإنما اختار(قمة المجد) وليس مجد أي مجد ، فقد يكون مجدا طارئا ، لكنه المجد الأصيل العريق ، وجالس توحي بثبوت الجلوس على قمة هذا المجد التليد !!

لذلك سبق وقومه بالمكارم والعلا حيث يقول في البيت الرابع :

سبقت وقومي بالمكارم والعلا

وإن رغمت من آخرين المعاطس

فالتعبير بـ (سبقت) في الماضي دليل على أنهم نالوا وسبقوا والسبق يوحي بالظفر والنصر .كما لا يخفى جمال التعبير في قوله :

(وإن رغمت من آخرين المعاطس) .

لم يقل الأنوف ، وإنما قال المعاطس ليؤكد المعنى الذي يريده وإن كانت الأنوف محل العطس حيث يبدو الغيظ أكثر في تعبيره بالمعاطس، هذا وللأنوف وظائف أخرى كأستنشاق الهواء وغيره ، لكنه اختار ما يؤكد معناه ويعضده وهو إبراز ذلة وإنكسار من لا يودون لهم الفوز بالمكارم والعلا .

وللشاعر بعنوان :

الغني غني بنفسه[1]

١ـ إن الغني هو الغني بنفسه

ولو أنه عارى المناكب حاف

---

(١)ديوانه ص ١٩١.

٢ـ ما كل ما فوق البسيطة كافيا
فإذا قنعت فكل شـيء كاف
٣ـ وتعاف لي طمع الحريص أبوتي
ومروءتي ، وقناعتي ، وعفافي
٤ـ ما كثرة الخيل الجياد بزائدي
شرفا ولا عدد السوام الضافي [١]
٥ـ خيلي وإن قلت كثير نفعها
بين الصـــوارم والقنا الرعاف [٢]
٦ـ ومكارمي عدد النجوم ومنزلي
مأوى الكـــرام ومنزل الأضياف
٧ـ شيم عرفت بها مذ أنا يافع
ولقـــد عرفتُ بمثلها أسلافي

تعليق ونقد:

يعرف الشاعر حقيقة الغنى مبينا أن الغنى غنى النفس وذلك في قناعتها فإن قنعت فذلك غناها ،ولو طمعت ما كان كل ما فوق البسيطة كافيا لها .

وبعد هذا التعريف يرينا الشاعر نفسه ، فإذا هو قانع راض وتأبى نفسه طمع الحريص لما فطرت عليه من مروءة وعفة . ثم أرانا أن كثرة

---

(١) يشير إلى ماعرض عليه سيف الدولة من الخيل ، وإلى إبائه من أخذ شئ منها.
(٢) الرعاف : القاطر الدم .

الخيل ـ وكانت قد عرضها عليه ابن عمه سيف الدولة ـ ليست بالتي تزيده شرفا ، حيث يرى أن خيله وإن قلت كثير نفعها بين الصوارم والقنا !

ثم ذكر لنا أن مكارمه عدد النجوم ، وأن منزله منزل الجود والكرم.

وحتى يجعلنا موقنين بما عدد من مكارمه قال :

إن هذه شيم عرفت بها منذ تجاوزت الطفولة وقد عرفت بمثلها آبائي وأجدادي .

وإذا تلمسنا مواطن الجمال في هذه الأبيات يسترعي انتباهنا ما احتوت عليه من روعة وجلال فمثلا في البيت الأول :

يستهل الشاعر البيت بالتأكيد (إن الغني) حتى لا يخالجنا شك فيما يقول ، ثم يأتي الضمير ويكرر الغنى (هر الغنى)لنزداد يقينا قوله (بنفسه) مؤكد أيضا على أن الغنى من داخل الأنسان نفسه لا من خارجه ، ويروعنا ذكره عقب ما ذكر من مؤكدات : بمؤكد آخر قد يبدوا غريبا لدينا لذا صدره ب(لو) إذ يقول (ولو أنه عار المناكب حاف) .

يا لله من جمال التصوير ، إن هذا التصوير غاية في التعبير، عن فقر الانسان، فماذا بعد عرى المناكب والسير حاف بلا نعل ؟ أيظن ظان ليس عنده مثالية أن هذا الفقير المدقع غني ؟

إن هذا في عرف من لا خلاق لهم فقير فقير .

أما عند أبي فراس فهو غني ، لأنه غني بنفسه ، إذ تضم جوانحه نفسا أبيه تفيض غني على الرغم من حاجته المادية ! ولا يخفى ما في البيت من كناية إذ أن (عاري المناكب حاف) كناية عن فقر مدقع .

وفي البيت الثاني . يستهل الشاعر البيت بسبلب العموم (ماكل ما فوق البسيطة كافيا) حيث ينفي كفايته كل ما فوق ظهر الأرض للإنسان الذي لا يقنع ويختمه بعموم الإيجاب مصحوبا بجواب الشوط (فإذا قنعت فكل شيء كاف) فما أروع الإنسان قانعا ، إذ يكفيه كل شيء ولو كان قليلا !

وفي البيت طباق لا يخفى يعكس طمع الإنسان الذي لايشبعه كل ما فوق الأرض ، وقناعة إنسان آخر يرضيه أي شيء ويكفيه .

وفي البيت الثالث يروقنا من الشاعر بيان موقفه من الغني أهو الحريص الطامع أم الأنسان القانع ؟

إذ يجيبنا إجابة شيقة رائقة ، على غير ما نتوقع ، إذ كنا ننتظر منه أن يقول مثلا أنا قانع وغير طامع ، لكنه ـ وليس بجديد منه ـ قال :

وتعاف لي طمع الحريص أبوتي

ومروءتي وقناعتي وعفافي

حيث صدر البيت بما يعبر أصدق تعبير عن عزوفه وبغضه لطمع الحريص ، ذلك في قوله (تعاف) حيث صور طمع الحريص شيئا قذرا نتنا تعافه النفس الأبية فلا تقربه ، وجميل منه حمله العائف أمورا عدة ، لا أمرا واحدا

وصدرها بما يزينها وهو (أبوتي) وجد حريص على شرف الأرومة واكتساب المعالي من آبائه ، لا الحرص على المال ثم شفعها بـ (مروءتي وقناعتي وعفافي) وهذه أمور مركوزة في طبعه بعد أن

استقاها من معين الأبوة فجميل منه ذكره الأصل في اكتساب المعالي .

ومنها النأي عن طمع الحريص بأسلوب رائع بالغ حد الروعة حيث الجمال الأخاذ ، ولا يخفى الجمال في قوله (لي) بعد تعاف المشعرة بأن هذا له ورافع لقدره ، ولا يحط من شأنه .

وما أجمل المروءة والقناعة والعفاف بعد الأبوة كارهين ومتأففين من طمع الحريص !

من يستطيع هذا غير أبا فراس ؟

ثم يقفنا الشاعر على نظرته للشرف والعوامل التي تزيده حيث يقول : في البيت (٤)

ما كثرة الخيل الجياد بزائدي شرفا ولا عدد السوام الضافي

فما أروعه حين يصدر البيت بالنفي للكثرة على خلاف المألوف لدى كثير من الناس الذين يرون الشرف في المزيد من الخيل والأنعام .

وليرينا عفته يعقب الكثرة بوصفها بأنها جياد ، ومع ذلك فلا تخدعه ليظن أنه يزداد شرفا كلما كثرت خيوله أو عدد السوام . ثم يرينا أن الشرف فيما قل من خيله حيث يقول في البيت (٥)

خيلي وإن قلت كثير نفعها بين الصوارم والقنا الرعاف

جميل من الشاعر أن أرانا القليل كثيرا وجالبا للشرف الحقيقي وأي جمال للخيل أسمى من جولانها بين الصوارم والبواتر والقنا الذي يقطر دما ، وذلك أمارة إلفها المعامع والوغى ولو كانت لا تألفها لجفلت ونأت عن هذه المواطن !

وما أروع الشاعر حين يرى النفع الحقيقي للخيل في حرمة الوغى ومنازل الأبطال !!

كما نجد الروعة في وصف القنا بالرعاف ، وألمح هنا جمالين في آن واحد جمال التعبير عن قطرات الدم بالرعاف الذي يسيل من أنف الإنسان أحيانا ، وجمال المبالغة لا يخفى . وتفوح رائحة الكناية المنبئة عن الكثرة في وصف القنا بالرعاف .

ومما زاد البيت جمال ا لطباق بين قلت وكثير . ومما يبدوأيضا أنه يعني نفسه بالشجاعة هنا فالخيل وحدها لا تثبت إلا إذا امتطاها فارس مقدام !!

وفي البيت السادس يذكرنا بأن مكارمه من الكثرة بحيث تصل إلى عدد النجوم ، وأن منزله مأوي الكرام ـ وأحسبه يكني عن نفسه ، كما أن منزل الأضياف حيث القرى وكرم الوفادة ، أهناك منزل أعلا شأنا وأكرم مكانا من منزله ؟

ويختتم الشاعر فخريته بقوله :

شيم عرفت بها مذأنا يافع ولقد عرفت بمثلها أسلافي

ما أجمل تعبيره (عرفت بها مد أنا يافع) أي لم أتصنعها الآن ، بل هي مركوزة في طباعي منذ اليفاعة ، وأحسبه اختار المعرفة لينفي الجهالة ، وفي هذا تسليم وإذعان بأنه مفطور على الشيم الكريمة ، ولم يكتفي بذلك ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك حين قال (ولقد عرفت بمثلها أسلافي) يزين تعبيره هذا تأكيده (ولقد) وذكره الماضي(عرفت)

للتحقيق النافي للجهالة والشك . وذكر (أسلافي) منبئة بأن له من أسلافه مثلا وقدوة وهذا أعظم ميراث يرثه المرء فالمال والجاه يزولان ، أما شريف الخصال وكريم الفعال فسرمدي البقاء .

ومن سجاياه قوله : (١)

١ـ ولست بجهم الوجه في وجه صحابي

ولا قائل للضيف متى أنت راحل ؟

٢ـ ولكن قراه ما تشهى ورفده

ولو سـأل الأعمار ما هو سائل

٣ـ أصاغرنا في المكرومات أكابر

أواخـرنا في المأثرات أوائل

٤ـ إذا صلت يوما لم أجد لي مصاولا

وإن قلت قولا لم أجد من يقاول !

تعليق ونقد :

نلمس سجايا الشاعر في حسن عشرته الناس ،وأول شيء من أماراتها طلاقة الوجه للصاحب ، ومن أماراتها أيضا إكرام الضيف والحرص على بذل ما يسره والحذر مما يسيئه من قول أو فعل .

هذا ومن حرص أبي فراس على إثبات أصالة سجاياه نراه دوما يعزوها إلى أصوله التي ينتمي إليها ، فنراه يفتخر بأن أصاغرهم في المكرمات أكابر ، وأواخرهم في المأثرات أوائل .

ويرى أبو فراس نفسه فريد عصره صائلا ، وسحبان دهره قائلا !

هذا وبالنظر إلى هذه الأبيات يستوقفنا ما في البيت الأول من جمال التعبير كمثل قوله : (ولست بجهم الوجه في وجه صاحبي) حين يصدر البيت بالنفي لجهامة الوجه وإبداء التضجر للصاحب.

وأراه اختار وجه الصاحب لأن إظهار التجهم في الوجه مما يترك آثارا سيئه على نفس الإنسان وأبو فراس لحسن أدبه لا يفعل ذلك في وجه صاحبه حرصا منه على ديمومة المودة وبقاء صدر صاحبه سليما وعامرا بحبه فهو إذن طبيب نفسي أو بمثابة الطبيب النفساني !

كما يروعنا من الشاعر قوله : (ولا قائل للضيف متى أنت راحل ؟)[1] حيث نفى أيضا قوله للضيف (متى أنت راحل ؟)

لأن هذا خلق لا يليق بذي مروءة ،ومن هنا فلا يقوله حفاظا على أحاسيس ومشاعر الضيف ، بل إنه رهن إشارة الضيف وطوع أمره حيث يقول في البيت الثاني مستدركا بخصوص الضيف :

ولكن قراه ما تشهى ورفده ولو سأل الأعمار ما هو سائل

حقيقة يبدو الشاعر رائعا حين استدرك على ما فات من مظنة أنه لا يقول للضيف متى تترك داري وقد يقصر في رفد الضيف مدة ثوائه عنده فدفعا لهذا كله أفادنا أن قرى الضيف (ما تشهى ورفده) ففي ما تشهى تذهب النفس كل مذهب ، فهنيئا لضيف يقرى ما تشهى ، فالتشهي فوق كرم الضيافة والتعبير ب(ما) الموصولية موحي بالتفخيم فيما أرى ، كما أرى أن التضعيف في تشهي أمارة على الكثرة والتجدد

---

(١) ديوانه ص ٢١٦- ٢١٧.

فكلما اشتهى شيئا جيء به إليه ، ويومىء إلى تواضع أبي فراس الجم لضيفه وتلبيته كل ما يريده ، بل لقد فاق الحدد حين خال الضيف ثاويا طوال عمره عزيزا كريما، أو بطريق الإمتناع لو سأل الأعمار وهي أعز وأغلى ما يطلب لجدنا له بها

وألمح من قوله (ما هو سائل) أن الضيف لا يسأل الإعمار عادة ، هذه مما لا تملك ولا توهب ، وإنما مالكها وواهبها خالقها جل جلاله ، لكن لو كانت من حاجيات الضيف وسألنا إياها ما بخلنا بها إتماما لقراه!

وفي البيت الثالث يروعنا ما في البيت من جمال الطباق الذي يزين ما يذهب إليه الشاعر من إثبات أن أصاغر بنى حمدان أكابر في المكرمات (أواخرنا في المأثرات أوائل) ولعل هذا ما يقوي افتخاره على الأخرين فهو سليل الأماجد الشم أصول وفروعا ، لا أصولا فقط ، أو فروعا فقط .

وجميل من الأصاغر أن يكونوا أكابر في المكرمات ، وجميل أيضل أن يكون الأواخر حافظين على المأثر ات كالأوائل .

أما البيت الأخير :

إذا صلت يوما لم أجد لي مصاولا

وإذا قلت قولا لم أجد من يقاول

فهو فخر يرفعه إلى درجة من السمو تتضائل أمامها همم الرجال، إذ أنه عبر عن نفسه بطريق كنائي رائع بأنه لا ند له فروسية، كما أنه

أفادنا بأنه قد تسنم ذروة البيان حين أثبت بطريق كنائي أيضا أنه لا مثيل له قولا ويزين التعبير ما فيه من شرط أعقبه الجواب .

كما تتجلى براعة التعبير أيضا في قوله (لم أجد) في كلتا الحالتين حيث النفي الجازم ، الأمر الذي يجعلني ألقبه برب السيف والبيان، وربما استوحى مَنْ لقَّب البارودي رائد النهضة الشعرية الحديثة بأنه (رب السيف والقلم) من سلفه أبي فراس الحمداني.أحسب ذلك!

هذا وألمح أن الشاعر حين نفى من يصاوله زاد عباراته تأكيدا بلفظ (لي) ولم يقل ذلك حين نفي وجود من يقاوله أرى أن ذلك يوحي بأن الشاعر استخدم (لي) مع نفي المصاولة لأنه لا يجد حقيقة من يصاوله ، أما القول فلم يؤكده بذلك لأنه قد يوجد ، أو لاعتداده بالفروسية أكثر من القول ذكر (لي) لام الملكية مع الضمير ، ولم يذكرها مع نفي من يماثله في القول :

ومن قوله مفتخرا في قصيدة بعث بها إلى سيف الدولة : [1]

وأنا الذي ملأ البسيطة كلها

نارى وطنَّب في السماء دخاني [2]

إن كم تكن طالت سني فإن لي رأي الكهول ونجدة الشبان

قمن بما ساء الأعادي موقفي والدهر يبرز لي مع الأقران [3]

(١) ديوانه ص ٣٠٤. (٢) طنب : طنب بالمكان : أقام به / اللسان (طنب) .
(٣) قمن : خليق وجدير .

إني أغار على مكاني أن أرى فيه رجالا لا تسد مكاني

يرينا الشاعر منزلته من الجود فيخال أن ناره ملأت الأرض كلها وأن دخانه علا في السماء وأقام بها !

ويقفنا على أن له من الحنكة والتجارب ما يفوق سنه ثم إنه جدير بإساءة الأعداء لمواقفه وقوة بأسه ، حتى إن الدهر ينازله مع الأقران فهو من الشجاعة بحيث يقوى على تألب الدهر عليه مع أقرانه .

لذلك فهو يغار على مكانه أن يري فيه من لا يسد مسده !

هذا وإذا ما تأملنا الأبيات لنستجلي ما فيها من روعة تعبير وجمال تصوير يستوقفنا قوله في البيت الأول :

وأنا الذي ملأ البسيطة كلها ناري وطنب في السماء دخاني

حيث يصدر البيت بضمير المتكلم (أنا) ويتبعه بالموصول (الذي) والفعل (ملأ) لا سواه ، وأي شيء ملاه ، إنه ملأ البسيطة وحتى لا يفهم أنه ملأ جزء ا من الأرض أردف ذلك بالتأكيد بلفظ (كلها) حقيقة إنه أجاد اختيار ألفاظ معبره عن مقصوده الذي ينشده ويتغياه وهو أنه لا سواه ملأ الأرض كلها ، يا ترى بماذا ملأ الأرض جميعها ؟

إن الروعة تتجلى في أسمى معانيها حيث يقول : (ناري) بأضافة النار إلى ياء المتكلم ولم يقل نارا ، وأحسبه عدل عن ذلك ليرينا أنه

يعني نار القرى، لا نار الحرب وأخاله أنه لا عتزازه بنار القرى عن نار الحرب ـ وهوا بن بجدتها ـ [1] أضافها إلى نفسه فقال (ناري) .

ولما لم تسع الأرض بما رحبت ناره صعد إلى السماء دخانها متخذا منها مقاما ، ولم يجعل الشاعر الدخان للنار بل نسب إلى نفسه أيضا حين قال : (وطنب في السماء دخاني) متخذا منها مكانا ، يا للروعة !!

وأرى في نسبته النار والدخان لنفسه مرجحا لكون النار والدخان للقرى ، فالنار حين عمت الأرض صعد منها دخان إلى عنان السماء وبهذا يكون التناسب لكثرة الجود وعمومه ، ذلك ما يبدو من التعبير الكنائى الذي يوحيه تعبير الشاعر عن السعة والكثرة لجوده !

ومما يزين البيت ما احتواه من طباق (البسيطة ـ السماء) ولا تخفى مراعاة النظير في (ناري ، دخاني) .

وأحسب أن قليلا من الشعراء يسمو بهم خيالهم حين يجعلون الأرض نارا يهتدي إليها الضيفان من كل صوب وحدب ويجعلون السماء مستقرا للدخان المنبعث من نار القرى!!

---

(١) ابن بجدتها : العالم بها والخبير بفنونها .

وأزعم أن أبا فراس من أقل القليل الذين سمابهم خيالهم إلى هذا الحد !!

هذا وإيقاد النار شيء ألفه سمحاء العرب ، إذ كانوا يوقدون النار على يفاع من الأرض لتكون أبين وأوضح ، وربما أوقدوها بالمندل الرطب ـ وهو عطر ينسب إلى مندل بلد بالهند ـ ونحوه مما يتبخر به ليهتدي إليها العميان [1]

فهذا حاتم الطائي يقول :

إذا ما البخيل الخب أخمد ناره [2]

أقول لمن يصلى بناري أوقدوا [3]

وهذا الأعشى يقول في مدح المحلق : [4]

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار في يفاع تحرق

تشب لمقرورين يصطليانهما وبات على النار الندى والمحلق

---

(١) بلوغ الأدب في معرفة أحوال العرب للألوسي ط : ص ٧٠ ط : دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) الخب : الخبيث المخادع .

(٣) شعراء النصرانية ص ١١٣ ط : بيروت .

(٤) ديوان الأعشى القصيدة ص ١١٦ - ١٢١ ط : دار بيروت .

ومعروف أن قول الأعشى هذا رافع مكانة المحلق بعد فقر وخمول ، فطار ذكره في الآفاق ،

وهذا مزرد بن ضرار يقول :

فأبصر ناري وهي شقراء أوقدت بعلياء نشز للعيون النواظر [1]

ويعقب الجاحظ على هذا البيت بقوله :

جعلها شقراء ليكون أضوأ لها . وكذلك النار إذا كان حطبها يابسا كان أشد لحمرة ناره ، وإذا كثر دخانه قل ضوءه [2]

وفي البيت الثاني :

إن لم تكن طالت سني فإن لي رأي الكهول ونجدة الشبان

يروعنا الشاعر بتعبيره الكنائي (إن لم تكن طالت سنى) كانية عن صغره حيث يقفنا على أن الحنكة وسداد الرأي لا يوجدان في طول السن، فقط بل قد يوجدان في ريعان الشباب ، كما هو الحال لدى أبي فراس حين يؤكد ذلك قائلا على طريقة الجواب للشرط المتقدم (فإن لي رأي الكهول ونجدة الشبان)

ويزينه التأكيد وتقديم الجار والمجرور(لي) المفيد للقصر فيما أرى

---

(١) نار شقراء : محمرة . نشز : مرتفع.

(٢) البخلاء للجاحظ ص ١٦٥ ط : المكتبة الثقافية بيروت .

وأبلغ مما لو قال : فإن رأى الكهولة ...لي ، لكنه آثر التقديم ليفيدنا أنه قصر عليه أو مما استأثر به وحده من دون أنداده ويستهوينا أن ملكيته لحسنين هما :

١ـ رأي الكهول الذين اجتازوا مرحلة الصبا والطيش إلى الحكمة وسداد الرأى . فالرأى الصائب رأيهم .

٢ـ نجدة الشبان ، فجميل جدا اختياره لفظ (نجدة) مع الشبان ، إذ هى المناسبة والمتوقعه والمنتظرة من الشبان، كما جمل من قبل اختياره (رأي) مع الكهول.

فما أروعه في شرخ شبابه حين يجمع بين نجدة الشباب ورأي الكهول الذين يكون بهما الكمال الأنساني والحاجة في نفس الشاعر قدم رأي الكهول على نجدة الشبان ليرينا من أول وهلة أنه ذو التجاريب ، لا الشاب الطائش الرأي ، بل هو الكهل الشاب !

هذا ويزين البيت ما فيه من جمال بلاغي ولا سيما في قوله (طالت سنى) حيث تلوح الاستعارة ، ولا تخفى روعة الطباق بين (الكهول والشباب) .

وفي البيت الثالث :

قمن بما ساء الأعادي موقفي والدهر يبرز لي مع الأقران

جميل من الشاعر استهلاله البيت باللفظ (قمن) المنبىء عن كونه

جدير بالذي يسوء الأعادي ويلاحظ أن أعدائه كثر فليس عدوا واحدا ، ورائع منه قوله (موقفي) المشعر بأن له من المواقف المفحمة للأعداء ما له ! ولم يقف عند ذلك الحد وهو قدرته الفائقة على إساءة الأعداء ، بل خال الدهر مبارزا له مع الأقران !

فإنسان يتألب عليه الدهر ـ بما له من سطوة ـ مع أنداده لهو مفرط في الشجاعة والبأس على حد قول الشاعر :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم

وتأتي على قدر الكرام المكارم [1]

وربما جنح الشاعر هنا إلى المبالغة في تخيل الدهر منازلا له مع الأبطال ، لكنها مبالغة محمودة لشاعر فارس وطيء بسنانه ولسانه الثريا فيما أحسبه !

وفي البيت الرابع والأخير :

إني أغار على مكاني أن أرى فيه رجالا لا تسد مكاني

يصدر البيت بالتأكيد المصاحب لضمير المتكلم (إني) ليوحي بأنه تأكيد قاطع ، على ماذا يا ترى ؟ على الغيرة ، وجميل منه إيراده الفعل (أغار) في المضارع المفيد للتجدد ، وكأن الغيرة متجددة منه فكلما رأى في مكانه يوم البأس رجالا لا يقومون بأعباء هذا المكان شجاعة ونجدة

---

(١) البيت للمتنبي جـ ٢ : ص ٢٠٢ العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب لنا صيف البازجي ط: بيروت .

تجددت غيرته .

هذا والغيـرة محمـودة هنا فليست على مغنـم أو شيء يسر النفس كفتاة كان يتعشقها مثلا .وإنما هي غيرة على معالي الأمور .

إذ أن مكانه شهر حين كان فيه بالقـوة الفائقة والشجاعة النادرة ، وإرهاب الأعداء .

وقوله (رجالا) مشعـر بأن مكانه من الأهمية بمكان ولذا لا يكون فيه إلا من اكتملت فيه صفات الرجولية ، ومع ذلك فهم لا يقومون مقام أبي فراس ، ذلك ما يوحيه قوله : (رجالا لا تسد مكاني) وربما لاحت لنا الكناية الرائعة المنبئة عن عدم الكفاءة .

كما ألمح من غيرته على مكانه كناية جـميلة مؤدها حرصه الشديد على مكانه من أن يكون فيه من ليس كفؤا له .

هذا وأحسب أن أبا فـراس الفـارس المغـوار لا يدع مكانه لأحـد طائعا ، وربما قال ذلك في إبان أسره ذلـك ما أرجحه ، ودليل على ذلك أن هذا الشعـر أرسله إلى سيف الدولة محـذرا من عدوه الدمسـتق قائد الروم .

وفي القصيدة عدا الأبيات السابقة ما يؤكد ذلك حيث يقول :

وأسُرتُ في مجرى خيولي غازيا

وحبُست فيما أشعلتُ نيراني

ومن فخره بكريم سجاياه قوله :[1]

أحـــمى حـــريمى أن يبـــا ح ولست أحـــمى مـــا ليـــه !
وتخـــافنى كـــوم اللقـــا ح وقـــد أمِنَّ عـــداتيـــه[2]
يمسى إذا طرق الضـــيـــو ف، فناؤها بفنائيـــه
نارى ، على شـــرف تأجـ ج للضـــيـــوف الســـاريه[3]
يا نـار إن لـم تجـلـبـى ضـــيـــفـا ، فلست بناريه !
والعـــز مـــضـــروب الســـرا دق والقـــبـــاب لجـــاريه
يجـنى ، ولا يُجـنى عـليـــه وينـــقـى الجلى بيـــه[4]

تعليق ونقد

يلفتنا الشاعر إلى ما يجب أن يذاد عنه وهو حريم المرء ، لا ماله ولا غضاضه إن حمى الإنسان ماليه من طمع الطامعين ، لكنه يؤثر الحريم على المال على حد قول الشاعر[5]:

أصون عرضى بمالى لا أدنسه

لا بارك الله بعد العرض فى المال

احتال للمال إن أودى فأجمعه

ولست للعرض إن أودى بمحتال

(١) ديوانه ص ٣١٥ (٢) كوم اللقاح : القطعة من الإبل الضخام .
(٣) شرف : مكان عال : تأجج : الأجيج لهب النار أو صوت النار (اللسان أجج)
(٤) الجلى : الأمر العظيم .
(٥) البيتان لحسان بن ثابت ديوانه ص ١٩٢ ط : دار الكتب العلمية بيروت .

ثم يقفنا الشاعر على جوده وأنه بلغ بالجود مبلغا كبيرا ، إذ تخافه إبله حيث ينحرها للضيفان الذين يغشون داره إذا جنهم الليل مهتدين بناره التى بدت لهم من علٍ متاججة ليراها الضيفان ، ويرينا أنه يخاطب النار قائلا لها : إن لم تجلبى ضيفا فلست بناريه!

هذاوجاره النصيب الأوفى فهو يرعاه ويحمى حريمه أيضا ، حتى أنه يمكن أن يعتدى اعتمادا على أبى فراس ونصرته إياه ، ولا يعتدي على جاره ، لأن الناس يرهبونه خوفا من بأس جاره أبى فراس الذى يعده عتادا وقوة يتقى بها الأعداء!!

وبعد

فإذا تأملنا هذه المقطوعة التى تعكس أخلاق أبى فراس مفتخرا بها يستوقفنا ما احتوته من جمال وروعة ، ولا سيما فى عباراته الشائقة الفائقة وألفاظه المنتقاه انتقاء خبير بمرامى الكلام وبدلالة الألفاظ على المعانى المرادة والموسيقى الراقصة ، فمثلا فى البيت الأول يقول :

أحمى حريمى أن يبـــا ح ولست أحمى ماليه

رائع من الشاعر اختياره (أحمى) مؤثرا له على سواه كأحفظ أو أصون .. الخ لأن المحمى جدير بأن يحمى وهو حريمه ، لذا ففى (أحمى) من الروعة والجلال ما ينبئ عن بذله كل غال ونفيس فى سبيل أغلى شئ لديه وهو حريمه أن يباح لأحد سواه !!

واختياره (أحمى) فعلا مضارعا مشعر بالتجدد فكلما أراده أحد شمر عن ساعد الجد وحماه . فجميل منه ايراده ما يوحى بحرمة عرضه

أن يستبيحه مستبيح حيث تلوح لنا مراعاة النظير .

على حين يذود الشاعر عن حريمه نجده ينفى حماية ماله بقوة (ولست أحمى ماليه) فما أروع طباق السلب الموحى بايثاره العرض عل المال في (أحمى حريمى ... ولست أحمى ماليه) ، كما أجد أن قوله (ولست) أقوى من أى تعبير آخر ينفى كأن يقول : ولا ، وما .... الخ .

هذا ولا أشك فى أن الشاعر سفيه لا يحمى ماله ويدعه للناس وإنما ذلك إيماء الى كرمه وجوده فهو يدافع ويحمى حريمه حيث لا عوض ، وينفق ماله ، لأن المال غاد ورائح، وبذا يرينا الجمال في المعنى وضده فحماية الحريم محمدة للمرء أى محمدة وعدم حماية المال لينفق محمده أيضا ،فجمع بين المحمدتين !!

وفى البيت الثانى

وتخافنى كوم اللقـــــا ح وقد أمن عداتيه

يسترعينا تعبيره بـ (تخافني كوم اللقاح) حيث الجمال البلاغي في الكناية عن كثرة نحره للإبل ، فهى تخافه وليس بخاف أن خوف الإبل مجازى إذ الخوف للإنسان حقيقة ، لإدراكه ما يخيف وما يؤمن على حين أن ابله قد أمنت أعداءه ، فلا تخاف منهم سرقا أو نهبا لأن الشاعر من القوة بحيث يحميهن من أن ينالهن طامع هذا ومن الملحوظ أن الشاعر عبر عن إبله بـ (كوم اللقاح) ليرنيا أنهن سمان لا عجاف ، وليرينا أيضا أنه ينحر القطعة من الإبل ، لا الواحد أو الاثنين ، الأمر

الذى يجعلنا نقف على كرمه البالغ الحد ، فإنسان تخافه إبله السمان، لأنه يعدها للضيفان ،ولا تخاف من أعدائه سرقا أو غصبا لفرط شجاعته ،ألا يدل ذلك على ارتقائه عرش الجود والكرم ؟

أو لا تخاف الإبل من أعدائه لأنهم بخلاء فلا يذبحونها فتبقى آمنة وادعة !

هذا ولا يخفى ما فى البيت من طباق رائع (تخافنى .... أمنّ)

حيث بدا لنا جمعه الأضداد جميلة في مواقعها ، فالخوف هنا جميل مع أن الخوف فى غير ذلك أمارة الجبن والضعف والأمن جميل فى كل أحواله كما لا يخفى تأكيده الأمن بـ(قد) ليدل على التحقيق . فما أروعه مستندا الخوف والأمن للإبل ليصل إلى مقصوده وهو الفخر بالكرم والشجاعة الفائقين الحد !!

وتتمة هذا البيت قوله فى البيت الثالث عن إبله:

يمسى إذا طرق الضيـــو ف فنـــاؤها بفنائيه

ما أروع تعبير الشاعر (ويمسى إذا طرق الضيوف) حيث اختار (يمسى) لأن الضيوف أكثر طروقا بالليل ، إنهم غرباء والغريب بحاجة إلى من يؤويه فيطعمه من جوع ويؤمنه من خوف ، والأروع قوله متمما (ويمسى فناؤها بفنائيه).

فحين يمسى المساء وتطرقه الضيفان يقترب من إبله أو تقرب إبله إليه لتكون قريبة ينحر منها ما يشاء بقدر عدد الضيوف الطارقين داره ،

وفى هذا كناية عن شدة قربها منه . وربما لاح لى خاطر بأن مراد الشاعر (فنائها) بفتح الفاء : أي هلاكها بسبب نحرها فهى (الإبل) تفنى بفنائى (دارى) وأستريح إلى هذا وأميل إليه لأن هذا يعكس مقصود الشاعر وهو كثرة إطعامه الضيفان كرام إبله فهى تفنى - وإن كانت تبقى ذكرا ومحمدة في الناس وعند الله .

وفى البيت الرابع يصف ناره قائلا :

نارى على شرف تأجـــ ج للضيوف الساريه

يحلو للشاعر إضافة النار إلى نفسه لأنها نار القرى ، ولم يكتف بكون النار معلومة للضيوف بلهيبها ، بل جعلها على شرف لتبدو للضيفان من أماكن بعيده ، فيهتدون إليها ، علي حد قول الخنساء فى أخيها صخر :

وإن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

وفى (تأجج) ما يفيد بأنها نار مشبوبة الأوار ، لا خامدة ويبرق سناها ثم تنطفئ جذوتها ، بل إن معانى أجيج النار أن يسمع لها صوت، وبذا اكتملت صفات ناره ، وإنى أتصورها نارا عظيمة حيث صورها لنا نارا ذات لهب وصـــوت على ربوة من الأرض ولو أن مـــصـــورا (فتوغرافيا) التقط لها صورة وقتها ماخلدت خلود وصفه لها منذ مايربو على ألف عام.

وفى قوله (للضيوف السارية) مايشعر بالهدف من هذه النار حيث تفيدها (لام الملكية) في (للضيوف) فجعلها ملكا للضيفان ولم يطلق

الأمر، بل جعلها للسارين ليلا لشدة حاجتهم إلى طعام ومبيت، ليتقوا وحشا كاسرا أو لصا فاتكا!!

لقد أرانا النار للحرقة نارا مؤنسة من ظلام الليل البهيم!

وأرانا أيضا النار للقمرة نارا جالبة للخير فهى بشير خير لانذير شؤم، وهل هناك خير أفضل من أن يبلغ الإنسان مأمنه وهو غريب في وحدته بفضل اهتدائه إلى سنا نار القرى التى أوقدها أبو فراس!

الأمر الذى حدا بالشاعر أن يخاطب النار خطاب الإنسان لأخيه الإنسان فيناديها قائلا فى البيت الخامس :

يانـــار إن لم تجلبى ضيفـــا فلست بناريه

وأحسب أن خطاب النار غير مألوف، وما عهدناه الا فى القرآن الكريم ، حين خاطبها عز وجل لتكون بردا وسلاما على إبراهيم في قوله تعالى ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾[1]. فلربما اقتبس هذا من القرآن الكريم وهو اقتباس جيد. ولربما استوحى ذلك من قول حاتم الطائى[2] حين أمر غلامه بإيقاد النار على يفاع من الأرض ليراها من أضله الطريق، قائلا :

أوقد فإن الليل ليل قرٌّ

والريح ياموقد ريح صر

عسى يرى نارك من يمر

(١) سورة الأنبياء الآية : ٦٩.

(٢) ديوان حاتم الطائى ص ٩٠ شرح فوزى عطوى ط دار صعبى بيروت.

إن جلبت ضيفا فأنت حرٌّ

مع ملاحظة أن حاتما جعل لغلامه جائزة، بل أسمى الجوائز إن جلبت ناره ضيفا، وهى حريته، أفهناك أثمن من حرية الإنسان؟

وأن أبا فراس هدد النار إن هي لم تجلب ضيفا بأسلوب الشرط والجزاء (إن لم تجلبي ضيفا) بماذا؟

(فلست بناريه) جميل جدا أن يخاطب النار وأجمل منه أن يجعلها ممن يغريهم الثواب ويخيفهم العقاب، فكأن النار تتوهج ويعلو صوتها لتجلب الضيف ، وفي الجلب معنى الجذب بشدة إلى مكان القرى ، حتى تخطى بالنسب إلي موقدها أبي فراس، وإلا فستفقد هذا الشرف ويعلن براءته منها، فأخال هذا أسلوب تحذير منه للنار حين خالها إنسانا يخيفه التحذير!

لله ما أروعه كريما مضيافا !!

وبعد أن أرانا جوده مع الغرباء دل إلي إحسانه إلي جاره في البيتين الأخيرين حيث يقول :

والعز مضروب السّرا دق والقباب لجاريه

يجنى ولا يُجنى عليـ ـه ويتقى الجلي بيه !

جميل منه أن يجعل العز كنفا وسترا وحجابا لجاره ففى ضرب العز مجاز رائع يقفنا على اهتمام الشاعر وحرصه الشديد ورعايته لجاره، واختياره العز يومئ إلى أن الشاعر يود جاره عزيزا ، ولا يحب

أن يراه فى موطن ذلة أبدا ، لذلك يضرب عليه العز سرادقا كما يضربه عليه قبابا!

فهو دائم الإحسان إليه دون من ونصير له فى كل حال، حتى إن الجار أصبح من القوة بالشاعر بحيث يعتدي ولا يُعتدى عليه وهذا تعبير رائق، إذ يرينا طباق السلب رواءه وطلاوته وأى عز يرجوه أى إنسان سوى أن يُخاف منه وأن يُحمى حريمه، ولقد زاد هذا الجار على مايُرتجى وهو أنه يجنى لقوته على الآخرين اعتمادا على قوة ومساندة جاره له ، وأرى أن الشاعر جنح إلى المبالغة ليرينا مدى قوته ومدي مساعدته ونصرته جاره.

ثم عمم الشاعر عونه جاره، حين قال (ويتقى الجلي بيه)

فلا يخاف ظلما ولا هضما، فإن رابه ريب أو عرض له خطب أو ألمت به نازلة يجده سندا وظهيرا!

فياليت لنا اليوم جيرانا أمثال أبي فراس، إذ أن العكس صحيح نراه اليوم ماثلا فى دور القضاد والحكم من أذي الجيران لبعضهم فقد جنح هؤلاء وأولئك عن منهج السماء ورسول الحق إلى الخلق فحاق بهم ماكانوا يكسبون !

الفصل الثالث
فخره بأرومته
آل حمدان

فخره بأرومته آل حمدان

له في ذلك الكثير ونكتفي بنماذج منها كقوله :(١)

ألم ترنا أعز الناس جارا ... وأمرعهم وأمنعهم جنابا (٢)
لنا الجبلُ المطل على نزار ... حللنا النجد منه والهضابا (٣)
تفضلنا الأنامُ ولا تُحاشى ... ونُوصف بالجميل ولا نُحابي (٤)
وقد علمت ربيعه بل نزار ... بأنا الرأس والناس الذنابى (٥)

تعليق ونقد

طالما فخر الشاعر بقومه وأصفا لهم سنى خصالهم، ولاسيما نصرتهم جارهم، وأنهم في خصب من العيش يفيضون منه على من يحل ساحتهم، ثم أبان أنهم يسكنون الأماكن العالية نجودا وهضابا، حتي إن الناس يفضلونهم بلا استثناء ويصفونهم بجميل الصفات بلا محاباة، إذ أنهم أهل للجميل !

ويصل بالفخر غايته، حين يقول إن سادة العرب من ربيعة بل إن نزارا ذؤابة العرب تقر للحمدانيين بأنهم في المقدمة والناس في المؤخرة!

(١) ديوانه ص ١٤ , ١٥.
(٢) أمرعهم : أخصبهم ، جناب الدار : فناؤها، وماقرب من محلة القوم.
(٣) النجد: المرتفع من الأرض . الهضاب : الواحدة هضبة: الجبل المنبسط.
(٤) تحاشي : تستثني أحدا. لانحابي : لانحرف عن الحق من يصفنا بالجميل.
(٥) الذنابي : ذنب الطائر.

ذلك مجمل ما تضمنته الأبيات، ولكى نصل إلي أغوارها يطيب لنا الوقوف أمام مافيها من روائع وبدائع تعبيرية وبلاغية فمثلا يسترعينا تصديره البيت الأول بالاستفهام الموحى بالإقرار (ألم ترنا أعز الناس جارا) ولا يخفى أن في عزهم جارهم عز لهم من باب أولي، لكنه يجنح إلي السمو البلاغى حيث يبدو لنا بطريق كنائى أن العز عزهم، ومنه ينال جارهم حظا، ولولاهم ماعز ولشقته المفرطة أتى بالفعل (ترى) كأن عزهم ماثل للعيان لايخفي علي ذى بصر، ويبدو الجمال في اختياره (أعز) اسم تفضيل ليدل علي أنهم سبقوا الناس في هذا العز وزادوا عليهم.

وفى تنكير (جار) دلالة على التعظيم فيما يلوح لى ، وإن كان فيه معنى التمييز، وربما أفاد التكثير والعموم فكل جيرانهم من عزهم ينهلون. وأثبت لقومه إضافة إلي ماسبق أنهم في خصب من العيش ، وأنهم في منعة وقوة، أثبت لهم ذلك على سبيل التفضيل.

(أمرعهم، وامنعهم) ثم زان ذلك كله الكناية الرائعة والمجاز أيضا حين جعل الخصب والمنعة لدورهم وماقرب منها، فهل الخصب والمنعة للدور أم لأهلها وقاطنيها؟

ثم إنه لم يقل نحن أغنياء وأقوياء بطريق مباشر، بل أثبت ذلك بطريق كنائى كما أسلفت!

وفى البيت الثانى :

لنا الجبلُ المطل على نزار حللنا النجد منه والهضابا

يرى الشاعر أنه وقومه اتخذوا من الجبل المشرف على نزار سكنا، حيث حلوا فى نجده وهضابه.

ويسترعى انتباهى قوله (لنا) المشعرة بالملكية المطلقة التى لا يُنازعون فيها، ولم يختر أى جبل، بل اختار (الجبل المطل على نزار) واختياره (نزارا) له معنى يرمز إليه هو على مايبدو لى أنه لايقصد السُكنى والمنازل ، وإنما يرمى إلى بُعد المنزلة والمكانة، إذ أن مكانتهم فى الذروة التى تعلو على نزار ذؤابة العرب، أو أننا نقاسمهم الشرف حيث نطل عليهم، حالين أو متصفين بهذه المنزلة فى كل حال. هذا وإن كان الشاعر يقصد السُكنى فقد اختار أحسن البقاع وأعلاها، ولا يخفى أن إطلالهم على (نزار) سكنا يعنى مجاوزتهم ولايجاور العزيز إلا مثله، فكما أن نزارا قمة العرب فكذلك آل حمدان!

ويخلص الشاعر إلى البيت الثالث قائلا :

تفضلنا الأنام ولا تُحاشى ونُوصف بالجميل ولا نُحابى

حيث يصل إلي أن قومه بما لهم من عزة ومنعة سادوا الناس ذلك مايبدو من قوله :

(تفضلنا الأنام) كأن هذا التفضيل مبايعة من الخلق لهم ولم يقل العرب، بل العرب والعجم.

وليثبت التعميم للفضل فيهم قال (ولا تحاشى) أى لا استثناء من الحمدانيين فكلهم في الفضل سواء، أو إن الناس جميعا بلا استثناء مقرون لآل حمدان بالفضل والتبريز.

وأثبت بأنه وقومه (نوصف بالجميل ولا نحابي)

يصفنا الواصفون بفعل الجميل محقين في وصفهم غير جانحين عن الحق والصواب.

وذلك يومئ إلي أنهم جديرون بما يوصفون به بطريق كنائى رائع!

ويختتم الشاعر أبياته هذه قائلا :

وقد علمت ربيعة بل نزار بأنا الرأس والناس الذُنابى

يقصد الشاعر إلي رفعة قومه موثقا ذلك بشهادة ربيعة ونزار مستخدما (قد التحقيقية، والفعل (علم) النافي للجهالة واختياره (ربيعة) والإضراب عنها إلي (نزار) تأكيدات علي مايريد وهو أنهم رأس العرب والناس ذيل لهم.

والملحوظ فى إضرابه عن ربيعة إلي نزار إشادة لطيفة إلي فضل نزار وهو من أجداد مولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليجعل للشهادة مكانة بعظم شاهدها. كما ألاحظ أنه أفرد (الرأس) وجمع (الذنابى) وأحسب أن الزعامة لاينبغى فيها التعدد، أما الرعايا فلا بأس بتعددهم الأمر الذي جعله يرفع قومه بجميل خصالهم إلي أسمى الدرجات ولا شئ أعلي من الرأس رفعة ومكانة، وجعل الناس ذنابى والأذناب تتبع الرءوس ، فهذا تصوير بديع لمنزلتهم فهم الآمرون والناس لهم ذنابى وتابعون، وفى هذا جمال بلاغى ملحوظ يتجلى في روعة الطباق.

وقال عن بنى حمدان[1]

لئن خلق الأنام لحسو كأس ومزمار وطنبور وعود [1]

فلم يُخلق بنو حمدان إلا لمجد أو لبأس أو لجود

تعليق ونقد:

يجزم الشاعر بأن بنى حمدان ماخلقوا لعبث أو لهو كما خُلق الناس فيما زعم وإنما خُلقوا للمجد الباذخ، وللبأس فى المعامع، وللجود في المساغب، فأكرم بقوم خلقوا لهذه الخصال !

هذا ويسترعينا استخدامه القسم والشرط في استهلاله البيت الأول(لئن) وأحسب ذلك الاستخدام من الشاعر ليثبت لنا بما لايدع مجالا للشك ماعليه قومه من جادة، ذلك مايؤكده الجواب :

فلم يخلق بنو حمدان إلا لمجد أو لبأس أو لجود

ومن الروعة استخدامه النفى والاستثناء، وهذا قاطع فى الدلالة على أحقيتهم لما وصفوا به، حيث اختارهم الله لهذه الصفات وحباهم بها وميزهم على الناس.

وأرى الشاعر مبالغا فى أن الناس مخلوقين للشراب واللهو.

فما كل الناس لاهين عابثين، فمنهم الجاد واللاهى، لكنا نغتفر للشاعر مبالغته لأنه ربما قصد إلي أن الخلق الذين عاصروا بنى حمدان كانوا في لهو وشراب بين القيان اللاتى يعزفن أرق الألحان فضاعوا بين شرب وطرب، بينما عاش الحمدانيون حياة جادة !

---

(١) ديوانه ص ٩٧.

(٢) المزمار، الطنبور، والعود من آلات اللهو.

ولا تخفي مراعاة النظير في (مزمار- طنبور- عود) ، و(مجد ، بأس، جود).

ويقول مفتخرا بأجداده وأعمامه :(١)

أنا الحارث المختار من نسل حارث ... إذا لم يسد في القوم إلا الأخاير
فجدي الذي لم العشيرة جوده ... وقد طار فيها بالتفرق طائر
تحمل قتلاها وساق ديانها ... حمول لما جرت عليه الجرائر(٢)
ومنا الذي ضاف الإمام وجيشه ... ولا جود إلا أن تضيف العساكر(٣)
وجدّي الذي انتاش الديار وأهلها ... وللدهر ناب فيهم وأظافر(٤)
وعمّي الذي أردي الوزير وفاتكا ... وما الفارس الفتاك إلا المجاهر (٥)
وعمّي الذي سُلت بنجد سيوفه ... فروع بالغورين من هو غائر(٦)
وعمّي الحرون عند كل كتيبة ... يخف جبال وهو للموت صابر(٧)
أولئك أعمامي ووالدي الذي ... حمى جنبات الملك والملك شاغر
له بسُليم وقعة جاهلية ... تقرّ بها فيد وتشهد حاجر(٨)

إلى أن يقول عنهم :

فإن تمض أشياخي فلم يمض مجدها ... ولاد ثرت تلك العُلى والمآثر
نشيد كما شادوا ونبني كما بنوا ... لنا شرف ماض وآخر حاضر
نطقتُ بفضلي وامتدحت عشيرتي ... وما أنا مداح ولا أنا شاعر

---

(١) ديوانه ص ١٠٧--١٢.
(٢) يشير إلي الحارث جده الأعلي الذي أصلح بين تغلب ودفع ديات القتلي من ماله.
(٣) يقصد جده حمدان الذي استضاف جند المعتضد وهو سائر لحرب بن طولون بمصر.
(٤) جده حمدان الذي مار الموصل وديار ربيعة عندما أمحلت أراضيهم.
(٥) عمه الحسين بن حمدان الذى قتل العباس بن المعتضدى.
(٦) عمه أبو الهيجاء الذي أوقع ببنى كلاب في نجد.
(٧) الحرون : لقب سليمان بن حمدان لقب به لعظمته في الحرب.
(٨) سليم: قبيلة. فيدوحاجر: موضعان.

تعليق ونقد

تحدث الشاعر مشيدا بمكانة أجداده الذاتي منهم والقاصي فكل منهم له منزلة ومكانة ترفعه إلي المجد وتبقى له ذكرا خالدا، فمثلا جده الأعلي الحارث الذى أصلح بين تغلب وودى قتلاها من ماله بقي ذكره في العرب بما بذل! وليرينا أن الجود باق فيهم أشاد بجده الأدنى حمدان الذي مار الموصل وديار ربيعة عندما أجدبوا، كما استضاف أيضا جند المعتضد وهو سائر لحرب ابن طولون في مصر.

ووقفنا على أعمامه الذين ازدانت بهم ميادين الوغى فكانوا فرسانها وبعد ذكر مآثرهم أرانا أن تلك الأمجاد لم تندثر ولم تطو، بل هى باقية باقتفاء آثارهم، وبذا يخلد المجد، إذ لو لم ينهج الخلف منهج سلفهم في بناء المجد لتقوضت أركانه، ولأصبح أثرا بعد عين !

أما وقد شادوا وبنوا بناء أسلافهم فالعز فيهم باق وتليد!

وبعد فيسترعينا مافي الأبيات من جمال تعبيرى وبلاغى كقوله في البيت الثانى :

فجدّى الذى لم العشيرة جوده وقد طار فيها بالتفرق طائر

جميل جدا تعبيره عن جود جده الأعلى الحارث التغلبى (لم العشيرة جوده وقد طار فيها بالتفرق طائر) (فلم) توحى بمعنى الجمع للعشيرة من فرقة وشتات ، ذلك ما نلمسه من عبارته الرائقة (وقد طار إلخ). حيث أشار إلى مدى التفرق الذى أصاب العشيرة بتصوير بالغ حد الروعة، حيث اختار الطائر دون سواه ليرينا إلي أى مدي الداء

الذي أصابهم، وأنه من الصعوبة أن يبرؤا مما أصابهم، أو يرجع الطائر بعدما طار بدائهم وانقسامهم؟

ألا فما أروع هذا التصوير بالطريق الكنائى الخلاب!

فكأن جده الحارث هو الذي انتزع داء الانقسام والفرقة من أجنحة هذا الطائر، وأعاد للعشيرة الوئام بجود يتيه علي الجود الذى هو الطعام والشراب، لأن هذا الجود ليس فى إمكان أى إنسان، بل أى جواد آخر، حيث تحمل ديات قتلاها وأعاد إليها الحب والوئام!

ومما يسترعينا قوله عن جده حمدان :

وجدى الذى انتاش الديار وأهلها

وللدهر ناب فيهم وأظافر

ففي قوله (وجدى الذى) بإيراد اسم الموصول ليزداد تعريفا وتمييزا عن سواه، وفى (انتاش الديار وأهلها) إشارة إلى انقاذهم مما أصابهم حين كلب عليهم الدهر، فرائع فى اختياره (انتاش) دون سواه معبرا عن فداحة ما أصابهم من جدب !

ويزداد روعة حيث يعلل لانتياشهم مصورا جور الزمان عليهم (وللدهر ناب فيهم وأظافر) حين خال للدهر نابا وأظافر وهما أخطر شئ ، إذ الناب يقطع والأظافر تخدش!

فما أغدره من دهر حين يفعل بهم ذلك !

وللدلالة علي قسوة الدهرعليهم اختار فى الظرفيه (فيهم) إشارة

إلى تعقمه فيهم وإصابتهم فى مقتل !

ذلك الجمال البلاغى بدا لنا فى الثوب الاستعارى (الاستعارة المكنية) فأرانا الدهر عاضالهم بنابه ، ومنشبا فيهم أظفاره كوحش ضار!

فما أبلغ هذا التصوير وما أبدعه !

ثم دلف إلى الفخر بالأعمام ففى عمه الحسين بن حمدان يقول :

وعمى الذي أردى الوزير وفاتكا وما الفارس الفتاك إلا المجاهر

فجميل تميزه بالموصولية ليرينا أنه فارس مغوار حيث (أردي الوزير العباس بن المعتضد).

ففى أردى جمال وحسن اختيار للإعراب عن فروسية عمه الخارقة ثم أثبت لعمه الجرأة لأنه يجاهر عدوه ، لا يتخفي له، حين يقول :

وما الفارس الفتاك إلا المجاهر).

فتبدوا الروعة من أسلوب القصر الذى عبر به عن حقيقة الفتاك ولا تخفي روعة المبالغة (الفتاك) فإن كان مع العباس فاتك فقد لاقى فتاكا، وأين الفاتك من الفتاك؟

وفي عمه أبي الهيجاء الذي أوقع ببنى كلاب في نجد يقول :

وعمى الذي سُلت بنجد سيوفه فروع بالغورين من هو غائر

فيروق من الشاعر تعبيره عن إيقاع عمه ببنى كلاب فى نجد قائلا: (سُلت بنجد سيوفه) ويرى الشاعر أن مجرد إخراج السيوف من أغمادها كاف لهزيمة أعدائه، على حد قول الشاعر :

فا السيف كل الناس تحمله ولا كل ذوات المخلب السبُعُ

ويرينا نتيجة إسلاله السيوف بنجد :

إذ عم الروع بالغورين[1] كل من حدثته نفسه بالإغارة على جيش أبي الهيجاء وذلك دال بالكناية على قوة أبي الهيجاء في تلك الوقعة ولاريب أن له في سواها مثل ذلك!

وفي عمه سليمان بن حمدان الملقب بالحرون يقول :

وعمي الحرون عند كل كتيبه تخف جبال وهو للموت صابر

رائع من الشاعر أن يلقب عمه سليمان بن حمدان أو يقفنا على تلقيبه بالحرون لثباته فى القتال، وله في هذا أشباه فقد قيل لحبيب بن المهلب الحرون لأنه كان يحرُن فى مواقف القتال، لايزيم من مكانه [2].

فقد كان عمه هذا رابط الجأش ثابتا فى مكانه يوم لقاء الأعداء ، حتى إنه ليروعنا من الشاعر تصوير ثبات عمه تصويرا فائقا إذ يقول :

(تخف جبال وهو للموت صابر) ما أروع هذا التعبير !

تهتز الجبال الرواسى وهو لا يهتز ، بل يصبر على تلقي الطعنات التى دونها الموت، أى شجاعة هذه؟ بل أين الشجاعة من هذا؟

فقد يكون شجاعا ثم يبرح مكانه، لكن الحرون شجاع ثابت لايبرح مكانه ويعلم أن (رائحة الموت تفوح ومع ذلك فهو(للموت صابر).

---

(١) الغورين: اسم موضع.

(٢) أساس البلاغة للزمخشرى (حرن).

وتبدو الروعة في تقديم الجار والمجرور (للموت) علي الصبر ليرينا أن الحرون يعلم أنه علي أى شئ يصبر نفسه، ولو قدم (صابرا) لكان أقل منزلة مما هو فيها، ثم إنه عبر عن الصبر بالأسمية المفيدة الثبات والدوام فهو دائم الصبر!

ولا يخفي مافى البيت من جمال بلاغى يتجلى في الكناية الرائعة (تخف جبال)، (وهو للموت صابر).

فما أروع عمه فائقا الجبال وليس جبلا واحدا!

ثم هاهوذا يذكر لوالده شيئا كأسلافه الأماجد:

أولئك أعمامى ووالدي الذى

حمى جنبات الملك والملك شاغر[1]

له بسُليم وقعة جاهلية

تقر بها فيد وتشهد حاجر[2]

فوالده حين يحمى جنبات ملك آل حمدان وهو خال من حُماته يكون قد أدى دورا عظيما، فما أروع قوله (حمى جنبات الملك) حيث الجمال الاستعارى، وأروع منه قوله (والملك شاغر).

ليفيدنا أن حماية والده للملك كانت في وقت فاصل، لا وقتا معتادا فالدفاع عنه وهو تتنازعه القوى أو الأطماع غيره إذا دافع عنه وهو قوى!

---

(١) شاغر:

(٢) سليم: قبيلة. فيد، وحاجر: موضعان.

وفصل ذلك بإيقاعه بقبيلة سُليم، وتبدو الروعة في قوله :

(وقعة جاهلية) ليثبت بطريق كنائى أنها وقعة شديدة البأس كوقائع العرب وأيامهم في الجاهلية التى سارت بها الركبان!

ولمزيد تأكيده على شجاعة أبيه وإيقاعه بُسليم هذه أتى بالفعل (تقر) والإقرار سيد الأدلة كما يقولون ومن المطلوب بالإقرار (فيد) أحد الموضعين اللذين دارت فيهما رحى الحرب، ولم يكتف بذلك الإقرار، بل أكده بالفعل (تشهد) والشهادة دليل آخر بل بها تقوى الدعوى ومن الشاهد إذن؟ إنه الموضع الآخر (حاجر).

وفى إقرار موضع وشهادة موضع آخر استنطاق لما لاينطق بطريق مجازى رائع، يومئ إلي يقين الشاعر من شجاعة والده بمالايدع مجالا لأدنى ريب ؟!

وفى الأبيات الأخيرة يقول :

فإن تمض أشياخى فلم يمض مجدها ... ولاد ثرت تلك العلى والمآثر

تشيد كما شادوا ونبنى كما بنوا ... لنا شرف ماض وآخر حاضر

نطقت بفضلى وامتدحت عشيرتى ... وما انا مداح ولا أنا شاعر

يروعنا من الشاعر قوله : (فإن تمض أشياخى فلم يمض مجدها).

حيث عبر عن أسلفه الأماجد بأشياخى وهو تعبيرا له وجاهته حيث يضفى عليهم من المهابة والجلال مايجعلهم فى منزلة رفيعة ورائع منه إثبات بقاء المجد واستمراره في الباقين، وأنه لم يذهب بذهاب

أشياخه، ذلك مايوحيه قوله:

ولاد ثرت تلك العلي والمآثر؟ ومما يزينه الاستعارة فى (دثرت) ولا يخفي جمال الطباق فى (فإن تمض .. فلم يمض)

هذا ويستوقفنا جمال التشبيه فى قوله :(نشيد كما شادوا وبنى كما بنوا) فالخلف جادوا السير على نهج السلف، حتى لايكونوا عالة عليهم في المجد فالمجد موصول، ذلك مايؤكده قول الشاعر :(لنا شرف ماض وآخر حاضر) ويبدو الجمال في (لنا) الدالة على الملكية للشرف الطارف والتليد كما يروعنا الطباق (ماض ، حاضر).

أما البيت الأخير فيسوقه الشاعر مبينا الهدف من افتخاره بقومه :

نطقت بفضلى وامتدحتُ عشيرتى وما أنا مداح ولا أنا شاعر

ويروقنى قوله (نطقت بفضلى) ففى (نطقت) من الجمال والروعة مالانراه في غيره من الألفاظ كأن يقول : أشدتُ ، أظهرتُ ذكرتُ ، عدوتُ إلخ.

فكأن الفضل كان حبيس صدره ، فما استطاع كتمانه فأراد له أن يخلد ويملأ سمع الدنيا عن طريق (النطق) ، فما أجمل اختياره!

كما يلوح لنا أنه بفخره بقومه ليس مداحا ممن يمدحون ابتغاء عرض وإنما يمدح قوما لهم مجد مؤثل، هو منهم وإلي دوحتهم ينتمى ولم يزو بالمدح متكسبا به، كما أزرى به بعض الشعراء من أمثال : النابغة الذبيانى الذي مدح الملوك وقبل الصلة علي الشعر وخضع للنعمان ابن المنذر وأصاب منه مالا جسيما حتى قيل :

إن أكله وشربه كان في صحاف الذهب والفضة، كما تكسب بالشعر قليلا زهير بن أبي سُلمى مع هرم بن سنان.

وناهيك بالأعشي الذي جعل الشعر متجرا يتجر فيه نحو البلدان، ولم تكفه بلاد العرب فقصد ملك العجم مادحا فأثابه وأجزل عطيته(١).

ومن نوادر مايروى عن الشعراء المتكسبين بشعرهم : أن مروان ابن أبي حفصه أعطى مائة ألف دينار غير مرة، والبحترى فاض كسبه من الشعر وكان يركب في موكب بن عبيده(٢).

وللشاعر فى مجال فخره بقومه قوله :

إنا إذا اشتد الزما	نُ وناب خطبُ وادلهم
ألفيت حول بيوتنا	عُدد الشجاعة والكرم
للقا العدى بيضُ السيو	ف ، وللندى حُمر النعم
هذا وهذا دأبنا	يودى دم ويراقُ دم

تعليق ونقد

رأى الشاعر مجد قومه معتمدا على دعامتين قويتين هما:

الشجاعة والكرم، أو إن جاز لنا أن نتخيل مجد الحمدانيين طائرا يطير في الآفاق بجناحين هما : الشجاعة والكرم.

---

(١) العمدة لابن رشيق جـ١ : ص ٤٩ ط. السعادة بتصرف.

(٢) العمدة جـ٢ : ص ١٥٠.

وللشاعر رجاحة عقل فيما ذهب إليه، فما رأينا مجدا يخلد فى الناس بغير هاتين الدعامتين، ولو تتبعنا أو استقصينا التاريخ ماوجدنا الجُبن والبخل أو واحدا منهما خلد فردا أو قوما، بل إن الجبان يستر جُبنه أحيانا بادعاء الشجاعة زورا، كما أن البخيل يرعوى أن يُذكر بالبخل لأنه شين فيدخل نفسه أحيانا فى زمرة الكرماء ساترا لبُخله، وإن لم يجد الجبان أو البخيل ملاذا يلوذ به من سوء ماهو عليه يلتزم الصمت!

وأصدق دليل على ذلك أننا لانجد مفتخرا بالجبن والبخل أو مادحا بهما، بل إنهما ميدان فسيح للهجاء ، وقد ضم ديوان العرب في باب الهجاء بهما الكثير والكثير!

وحسبى قول زهير فى ذم البخل :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله

على قومه يُستغن عنه ويذمم[1]

وليس بخاف أن زهيرا نظم معلقته فى مدح المصلحين العظيمين بين عبس وذبيان وهما : هرم بن سنان والحارث بن عوف ، حيث دفعا ديات القتلى من مالهما وقد بلغت ثلاثة آلاف بعيرا!

وحسبى من التنفير من الجبن قول طرفه :

إذ القوم قالوا من فتى خلتُ أننى

عُنيت فلم أكسل ولم أتبلد[2]

(١) معلقة ص ٨٧ بشرح المعلقات السبع للزوزنى ط : مصر.
(٢) معلقة ص ٥٧ بشرح المعلقات السبع للزوزنى

ولأبي فراس من ذلك الكثير والكثير كقوله :

ولاخير فى دفع الردى بمذلة كما ردها يوما بسوأته عمرو[1]

يقصد ماكان من عمرو بن العاص مع سيدنا على كرم الله وجهه ، حينما بارزه فى موقعة صفين فى ذى الحجة ٣٧هـ (فحمل علي عمرو ابن العاص فضربه بالرمح فألقاه إلي الأرض فبدت سوأته فرجع عنه فقال له أصحابه مالك يا أمير المؤمنين رجعت عنه؟ قال هذا عمرو بن العاص تلقانى بسوأته فذكرنى بالرحم فرجعت عنه ، فلما رجع عمرو إلي معاوية قال له أحمد الله وأحمد استك ؟)[2]

هذا والشاعر يرى أن قومه بالشجاعة والجود معروفون، وقد أعدوا لكل واحد منهما عُدته فللأعداء بيض السيوف وللأضياف حُمر النعم، وأصبح هذا من دأبهم وعادتهم يودون دما ويريقون آخر فشتان بين الدم المراق والدم المودى!

هذا وإذا تأملنا الأبيات السابقة يستوقفنا مافيها من براعة تعبير وروعة تأثير كقوله فى البيتين الأولين:

إنا إذا اشتد الزما ن وناب خطب وادلهم

ألفيت حول بيوتنا عدد الشجاعة والكرم

---

(١) ديوانه ص ١٦٠.

(٢) تراجع البداية والنهاية لابن كثير جـ٧ : ص ٢٩٢ , ٢٩٣ بتحقيق على شيرى ط: دار احياء التراث العربى بيروت، عمرو بن العاص بين يدى التاريخ عبد الخالق سيد أبو رابية / الزهراء للاعلام العربى.

فاشتداد الزمان ونوب الخطوب أمارة على أنهم لايكترثون برزايا الدهر ونوائبه، بدليل أنهم في تلك المحن تحيط ببيوتهم (عدد الشجاعة والكرم) ولم تغن واحدة عن الأخرى، فكان السياق أن يُعدوا للخطوب عُدد الشجاعة ، لكنهم شجعان كرماء في آن واحد، ويسترعى انتباهنا قول الشاعر (ألفيت) مثيرا انتباه المخاطب، ولم يقل : نعُد ، أو يوجد عندنا .. إلخ.

بل قال ألفيت ، ليؤكد للمخاطب ويريد مشاهدته لما أعدوه حاضرا مرئيا، وفي قوله (حول بيوتنا) إيحاء بأن بيوتهم من السعة والكثرة مايجعلها ذات أفنية وأسوار ويبدو أيضا أنها : دور منيعة حصينة قد لبست أردية العز والسؤدد الأمر الذى يجعلها كعبة القصاد ممن يرومون قراها!

كما يلوح من قوله (عُدد) بالجمع لا بالإفراد أنهم كثيروا العدد وافرو العُدد، وأنهم فُرسان صناديد.

ولا يخفي أن من يملكون هذه العُدد حين جور الزمان لاشك أنهم في لين من العيش!

فهم يعدون للشجاعة قراها وللندى قراه، ذلك مايتضمنه قول الشاعر :

للقا العدى بيض السُيو ف ، وللندى حُمر النعم

جميل أن يقول (للقا العدى بيض السيوف)

لأن العدو الكاشح ليس له إلا المهند شافيا فبيض السيوف يرينا أنها سيوف مواض بواتر، إما لجدتها أو لكثرة استعمالها فهى غير متروكة ولو تركت لذهب بياضها وران عليها الصدأ، وهذه كناية جميلة ويبدو من قوله (للقا العدى) كثرة ملاقاتهم الأعداء كما يبدو الجمال أيضا فى (وللندى حُمر النعم).

حيث اختار (الندى) ليعم أنواع الكرم ولذا قدمه على حمر النعم اهتماما بالندى فقد تعد حُمر النعم للتجارة وهذا يعكس ملكيتها للندى دون سواه. فكأنها قصرت على الندى

و(حمر النعم) دلالة على انتقاء الجياد منها للضيفان، ولايجود بها إلا كل جواد أصيل مطبوع علي الكرم.

وفيه كناية رائعة تنبئ عن أجود النعم .

والطباق ليس بخاف بين البيض، حمر.

كما يبدو الجمال في تقدم الصفة على الموصوف، إذ الأصل : السيُوف البيض، النعم الحمر.

وفى هذا جمال بلاغى ملحوظ يعكس اهتمامهم بالضيف وحذرهم من العدو، فللضيف ما يشبع جوعه من النعم، وللعدو مايشبع السيف منه، فما أروع هذا التعبير!

ويختتم الشاعر أبياته بعد ذلك قائلا:

هذا وهذا دأبنـــــا يـــــودى دم ويراق دم

باللروعة البالغة فى إتيانه باسم الإشارة إلي ماسلف من قرى الضيف بحُمر النعم وقرى السيف من دماء عدوهم ، يزين التعبير بعد الإشارة قوله :(دأبنا) مألوفنا وعادتنا فلم نتكلف الكرم أو الشجاعة، بل هما متأصلان فينا.

ثم يستوقفنا التعبير الفائق ماسلفه، بل البالغ حد الإعجاز التعبيرى، حيث يقول : (يودى دم ويراق دم)

في (يودي دم) ملامح وإيماءات خفية إلا على كل ذوق وحس أدبي ونقدى، إذ يتراءى لنا أن الشاعر- وكأنى به- مختبرا ذكاء كل من يقرأ هذا البيت وسوالفه أيهتدى إلي المقصود أم يضل السبيل ؟

وبتوفيق الله تعالى أقول لأبى فراس:

إن مقصودك من (يودى دم) أنكم يابنى حمدان شجعان أماجد تطعمون سيوفكم البيض دماء أعدائكم ولفرط فروسيتكم لاينال العدو منكم نقيرا ولاقتيلا؟

لذلك ولضعف عدوكم يرضى منكم بالدية لقتلاه ، فأنتم تودون قتلي عدوكم ، ولا يجد غير ذلك سبيلا!

وكأنى بالشاعر يرى أن دماءهم(الحمدانيين) متأبية علي القتل فالقتل منهم لغيرهم أمر محتوم، ودية هؤلاء القتلى حاضرة لديهم، وفى هذا إشارة إلي سعة أموالهم، فلا يضيقون ذرعا بدنيات القتلى.

هذا والدم الذى يراق فهو دم حُمر النعم، وفي يراق أمارة وكناية

عن الكثرة، إذ لو كانت النوق التى تقدم للضيفان قليلة ماعبر عنها بـ (يراق).

وأحسب الشاعر كنى بالدم المودي عن دماء أعدائهم كراهة أن يذكر القتل - مع أنه أمارة شجاعة- أو ليبين كما أسلفت حفظ دمائهم من أن يريقها أحد، لذلك فهم القاتلون المودون.

وأرى طباقا بين (يودي ، يراق).

والعجيب أن الدمين مُراقان من قبل الحمدانيين

فدماء أعدائهم تريقها سيوفهم، ودماء نعمهم يريقونها لضيفانهم، كسبا للمجد الباذخ فما أروع المجد الذى يُسقى الدماء ليستوى على سوقه ويؤتى أكله ذكرا خالدا فى العالمين؟!

وللشاعر في مجال الفخر بأرومته قوله :[1]

لنا بيت علي عُنق الثريا بعيدُ مذاهب الأطناب، سام[2]

تظلله الفوارس بالعوالى وتفرشه الولائد بالطعـــام[3]

---

(١) ديوانه ص ٢٦٩.

(٢) الأطناب: جمع طنب : وهو حبل طويل يشد به البيت والسرادق بين الأرض / اللسان طنب ./ أساس البلاغة

(٣) الولائد: جمع وليده. وهى الجاريه إذا استوصفت قبل أن تحتلم أساس البلاغة (ولد) ، العوالى : صدور الرماح.

تعليق ونقد

يرى الشاعر بيت آل حمدان ممتطيا جواد العز فوق الثريا رفعة ومجدا، ولم لا يكونوا كذلك ولهم جناحا المجد وهما الفروسية والجود أفلا يصلون إلي العزة القعساء ؟

وهنا يسترعى انتباهنا قول الشاعر في البيت الأول :

(لنا بيت على عنق الثريا) حيث قدم (لنا) المشعرة بالملكية وفى تنكير (بيت) إشارة إلي تعظيمه، تبدو لنا عظمة ذلك البيت من استعلائه على سائر البيوت وظهوره عليها، وليس علوا مألوفا معهودا له حد، وإنما تتجلي براعة الشاعر حين خاله (على عنق الثريا) ولو قال الثريا لكان دالا علي علو سام، لكنه اختار (عنق) ليرينا أن الثريا بما لها من ارتفاع ذلت ووطأت أكنافها لتكون مهادا للبيت الحمدانى الرفيع القدر. و(على) مشعرة بعلو العزة والقدر وفى (عنق الثريا) (استعارة مكنية رائعة.

ثم لايفتأ الشاعر ذاكرا لسمو بيتهم، حيث يقول عنه إنه : (بعيد مذاهب الأطناب سام) بأسلوب كنائى منبئ عن سعته ورفعته.

وفي البيت الثانى يستوقفنا قوله :

(تظلله الفوارس بالعوالى) ففى تظلله جمال ملحوظ تستريح له الأذن طربا لبلاغته، ففي الظل حماية من الأذى ووقاية من طمع الطامعين، حيث إن المظلل الفوارس ، لاغيرهم ، ولم يكونوا عزلا، بل إنهم ينسجون هذه الظلل من العوالى التى ترد كيد كل كائد، فبيت

مُظلل بالرماح العوالي يكون منا مهيبا مصونا!

هذا وفي التظليل : وقاية وتعميم وإحاطة، علي حد قول الله تعالى عن أصحاب الجنة (إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون هم وأزواجهم في ظلال علي الأرائك متكئون) يس ٥٥ ,٥٦.

وحسبى ماقاله بعض الأئمة في الظلال من أساطين اللغة وأئمة التفسير، فمن أئمة اللغة :

١- الخليل بن أحمد يقول :« الظلة والمظلة سواء وهما مايستظل به من الشمس، مكان ظليل : دائم الظل ، دامت ظلاله »[١]

٢- ابن منظور يقول :« الظلة « الشئ يستتر به من الحر والبرد، ويقال للبيت العظيم مظلة مطحوه ومطحية، ويقال :السلطان ظل الله في الأرض لأنه يدفع الأذي عن الناس كما يدفع الظل أذي حر الشمس[٢] ».

٣- الراغب الأصفهانى يقول : يعبر بالظل عن العزة والمنعة وعن الرفاهة قال تعالى :﴿إن المتقين فى ظلال﴾ فى عزه ومنعه.

وقال : ﴿أكلها دائم وظلها﴾ و﴿وهم وأزواجهم في ظلا﴾.

ويقال : أظلنى فلان : حرسنى وجعلنى فى ظله وعزه ومناعته[٣].

---

(١) العين جـ٨ : ص ١٤٨ -١٥٠ (ظل) تحقيق المخزومى والسامرائى ط : مؤسسة الأعلمى بيروت.

(٢) لسان العرب جـ١١ (ظلل) ط : دار صادر بيروت.

(٣) المفردات في غريب القرآن ص ٤٦٩-٤٧٠/ الانجلو المصرية.

وفى (تفرشه الولائد بالطعام) ففي (تفرشه) كناية جميلة وأمارة علي كثرة الطعام المعد للضيفان، وعلي كثرة الموائد التى تبسط ليجلس عليها من يغشون بيتهم الرفيع العماد.

وفى اختياره (الولائد) بالجمع دلالة على كثرة من يقمن على إعداد وتهيئة الطعام للآكلين ، فهم من الثراء بحيث تعمل في بيوتهم الكثيرات، أى مخدومون بجوار كثيرات و(بالطعام) دلالة على أن الخادمات هؤلاء همهن فرش الطعام للآكلين ، لاالبُسط والنمارق ، وليس هذا بضارهم شيئا إن فعلوه بجانب إعداد الطعام، لكنه اختار الطعام ليعكس اهتمام الحمدانيين بالضيف أكثر من اهتمامهم بشئون دورهم!

ومن قوله يفتخر بأرومته:[1]

إذا مسررت بواد جاش غاربه فاعقل قلوصك وانزل ذاك وادينا(٢)
وإن عبرت بناد لاتُطيف به أهل السفاهة فاجلس،ذاك نادينا !(٣)
نغير في الهجمة الغراء ننحرها حتى ليعطش في الأحيان راعينا(٤)
وتجفل الشول بعد الخمس صادية إذا سمعن علي الأمواه حادينا (٥)

وتغتدى الكوم أشتاتا مُروعة
لانأ من الدهر إلا من أعادينا [6]
ويصبح الضيفُ أولانا بمنزلنا نرضى بذلك ويمضى حكمه فينا

تعليق ونقد

يريد الشاعر أن يقفنا على قومه من خلال خصالهم ، لإننا إذا عرفنا خصالهم حكمنا على القوم ، أهم على خلق ومروءة أم على غير ذلك ؟

فها هو ذا يرينا واديهم ممر عا خصيبا ونزلا للمقوين وأن ناديهم منتدى للحكماء ، لا تقربة السفهاء ، ولذا يحث على ارتياد واديهم وغشيان ناديهم .

---

(١) ديوانه ص ٢٨٩
(٢) جاش : هاج واضطرب ، غاربه ، أعالى موجه ، قلوصك : ناقتك .
(٣) لا تطيف به : لا تحيط به .
(٤) الهجمة : القطعة من النياق .
(٥) الشول : النياق ، الواحدة شائله صادية: عطشى . حادينا ، الذى يحدو للإبل .
(٦) الكوم : القطعة من الأبل ، الواحدة : كوماء .

ثم دلف الشاعر إلى عادتهم فى إقراء الضيفان فأرانا أنهم ينحرون القطعة من النياق لإطعام من يحل بهم ضيفا . وأحيانا لا يجد راعيهم لبنا يشربه لنحر النوق للمتلئة لبنا فيعطش وهو الراعى !

ثم أرانا أن النياق تنفر عطاشا إذا سمعن الحادى يحدو للإبل عند الماء خوفا من أن يذهب بهما إلى المنحر فتظل مروعة مفزعة لدرجة أنها لا تأمن على نفسها إلامن أعادينا الذين لا ينحرونها ، إلا ضيفان يحلون واديهم ، فتنفعهم يجدن الأمان ، على خلاف حالها عند آل حمدان فهن فى روع دائم لكثرة النحر للضيفان !

وبعد أن ذكر عادتهم فى إقراء الضيف وقفنا على جانب نفسى جدير بالاهتمام ، إذ يجعلون للضيف الأولوية بمنزلهم عن رضي وسماحه لدرجة أنهم يأتمرن بأمره .

أفلا تدل تلك الخصال على عظم مكنة وعلو قدر من اتصفوا بها؟

وبعد ،،

فإذا تأملنا هذه المقطوعة يستوقفنا ما فيها من جمال أسلوبى وبلاغى فمثلا يسترعي انتباهنا قوله في البيت الأول :

إذا مررت بواد جاش غاربه

فالعقل قلوصك وانزل ، ذاك وادينا

حيث قدم الصفة علي الموصوف : فلم يقل (وادينا جاش غاربه)ليرينا بطريق مشوقة صفة واديهم ، وأنه أهل لقرى الأضياف

ويروعنا منه أسلوب الشرط (إذا مررت) وأروع منه الجواب : لتضمنه الدعوة (فاعقل قلوصك وانزل) وأسلوب الأمر موح بلزوم الدعوة ، فما ينبغى أن تمر بوادينا مرورا عابرا ، بل يجب أن تريح نفسك من وعثاء السفر عندنا طاعما ناعما !

ويبد والجمال فى الإشارة (ذاك وادينا) الذى من صفاته ما قد عرفت ، وأرى الإشارة شنا لواديهم بالبعيد (ذاك) مشعرة ببعد المكانة والمنزلة ، كما أحسب أنه آخر الموصوف لتشويق النفس إليه بعد ما عدد صفاته ، وقدم الدعوة ، بأسلوب الأمر المقتضى للوجوب ، أى وجوب النزول بالوادى ولا معدل عنه وألمح فى (اعقل) رغبة آل حمدان فى طول بقاء الضيف عندهم ، إذ فى عقل الناقة طمأنينة صاحبها عليها من أن تشرد ، والأمر الذى يجعله يبقى طويلا طاعما هانئا مطمئن النفس غير قلق ولا عجل !

وفى البيت الثانى قوله :

وإن عبرت بنادل تطيف به أهل السفاهة فاجلس ذاك نادينا

على غرار البيت السابق نجد الشاعر قدم صفة ناديهم واصفا مايدور فيه من أحاديث بطريق كنائى جميل (بناد لا تطيف به أهل السفاهة) وهنا ملحظ جمالى لطيف فى قوله :

(لا تطيف به أهل السفاهة) فهذا التعبير قاطع الدلالة فى اجتناب أهل السفاهة ناديهم من قريب أو بعيد ، واجتناب أهل السفاهة ذلك النادى ناف للريبة ومشعر بجلوس أهل العقل والحجا وأنهم (آل

حملان) ليسوا من السفاهة فى شئ ، لا فى أقوالهم ولا فى أفعالهم ! لذلك وبطريق الشرط والجواب الموحى باللزوم

(وإن عبرت بناد فاجلس) جاءت الدعوة قوية بالجلوس فى نادى أهل الحكمة الجادين لعلك تنال منهم خيرا ، ولا شك أنك نائله !

ولا يخفى أن تأخير الموصوف مشارا اليه باسم الإشارة للبعيد مشعر بالتشويق إلى معرفة ذلك النادى ولمن يكون ؟ وفى الوقت ذاته مشعر أيضا ببعد وسمو منزلته . هذا وألمح أن المقصود بواديهم : ديارهم وحماهم وهو من الكثرة والسعة بحيث يمر عليه المارون غادين ورائحين، الأمر الذى جعل الشاعر يختار له(مررت) وجاء الأمر (انزل) كما أن المقصود بناديهم مجلسهم الخاص ومكان شوراهم وهو خاص ليس له عموم الوادى ، لذا اختار الشاعر معه (عبرت) إن عبرت بناد تلوح الحكمة منه وتجلله المهابة (فاجلس) واحسبه لا يدعو إلا من توجد فيه صفاتهم ، فلا يغشى مجلس الجادين إلا كل جاد مثلهم.

وما لا يخفى - تتمة لما سبق فى (لا تطيف) أن الشاعر أجاد اختيار عبارة (لا تطيف) عن سواها ، فلو قال : لا تجلس فيه أهل السفاهة ، أولا يقربه أهل السفاهة ، لأوهم أهم ليسوا بممنوعين منه ، فقد يأتون ولا يجلسون أو يقفون من بعد ولا يقربونه . فذا دال بطريق كنائى على أنهم قوم راشدون ، الأمر الذى جعل الشاعر يفتخر برجاحة عقولهم وسمو متنداهم ، بطريق بالغ حد الروعة !

وفى البيت الثالث يقول الشاعر :

نغير فى الهجمة الغراء ننحرها

حتى ليعطش في الأحيان راعينا

رائع مه قوله (نـغير) حيث يوحى بالإغارة علـى عدو كاشح فى قـوة وعزيمة ، وإذا تبين لنا المهـجوم علـيه تلوح لنا عـلامات الجـود التى تقـوى على شح النفس ، ذلك ما يـبدو من قـوله (في الهجـمة الغـراء ننحرها) .

فاختياره (فى) بدلا من على دلالة على تعمقـهم فى قطعان إبلهم ولم يختـاروا أى إبل ، بل اختـاروا (الغـراء) منهـا لعظم الغـاية التي يأخذونها لها وهى : نحرها للضـيف ، وليس لبيع أو لمنافع أخرى تعود عليهم بمال أو نشب.

ويروقنا من الشـاعـر قـوله عـقب الإغـارة على الـقطيع من الإبل لنحـرها للضيـفـان (حتى ليـعطش فى الأحـيان راعـينا) حيث أفـادنا بأسلوب رائع ومعبر عن الغـاية التى بلغها الكرم منهم ، فعطش الراعى أمارة على نفاد النوق التي تدر اللبن ، ولو عطش وغـيره ما كان له وقع كوقع عطشه - وهو راعيـها وقريب منها وخبير بهـا - ولحرص الشاعر على إبراز تلك المنـقبـة لهم نجـده أدخل اللام على (يعطش) ليـضـفى عليها شيئا من التأكيد فلا يخالج السامع أدنى شك في صحة ما يقول :

ويبدو لى صدقه من قوله (في الأحيان) إذ لو قال دائما لقلنا : إن

الشاعر جاوز الإنصاف إلى الإسراف فى المبالغة .

وقوله راعينا مشعر بأن لهم راع يرعي إبلهم ، لا يرعونها بأنفسهم، وهذا من إمارات مجدهم الأثيل .

وتلوح الكناية الجميلة من (يعطش راعينا) عن كرمهم ، لا بخلهم .

وفى البيت الرابع :

وتجفل [1] الشول بعد الخمس صادية

إذا سمعن على الأمواه حادينا

فراتع من الشاعر أن يعبر عن كثرة نحرهم الإبل بطريق أراه مبتكرا وفيه جدة وطرافه ، حيث عمد إلى فرار النياق خوفا وفرقا حين سمعن الحادي على الماء - وهن أحوج إلى الماء ففررن عطاشا- لأنهم توقعن أخذهم إلى المنحر ففضلن العطش على الرى ، إذ فى العطش النجاة وفى الري ملاقاة الحتوف !

ويلاحظ أنه جمع الماء (أمواه) وذلك موح بكثرة حياضهم التى يسقون منها أنعامهم وبالتالى تبدو كثرة أنعامهم .

أرأيت براعة تعبير تفوق هذا التعبير ، إذ أخرج لنا صورة رائعة لجودهم صاغها من نفور الإبل حين سمعت صوت الحادى الذى يحدو لها حين السير فتنفذ السير إلى حيث يراد لها أن تسير .

---

(١) تجفل : تسرع فى الهرب خوفا - أساس البلاغة (حفل)

هذا والبيت الخامس يقفنا على صورة أخرى لكرمهم من خلال حال إبلهم ، حيث يقول:

وتغتدى الكوم أشتاتا مُروعة لا تأمن الدهر إلا من أعادينا

رائع أن تغدو القطعة من إبلهم وجلة مشتتة مفزعة خوفا من نحرها للضيفان التى تغشي دارهم كل يوم ، ولو جاز أن نقول كناية مناسبة لقلنا فى شأنهم : مروعوالكوم ، علي حد قول العرب :

(جبان الكلب ، مهزول الفصيل)

و(تغتدى) تفيد البكور وألمح التكرار ، فلو لم يكن ذلك دائما ما أصاب الإبل ما أصابها من ترويع وشتات !

وأروع من صدر البيت عجزه الذي ينفى الأمن للإبل من أربابها (آل حمدان) علي حين يثبته (الأمن) لها من أعاديهم ، وفي هذا براعة من الشاعر، حيث يثبت الكرم لقومه بطريق خوف إبلهم منهم ، وفى إثبات الأمن للإبل بطريق النفي والاستثناء من أعداء آل حمدان رمى لأعدائهم بالبُخل الذي يترتب عليه بقاء الإبل سمانا بطانا لاروع ولا فزع طوال الدهر، إذ لاضيفان تغشى دورهم !

كما أن أمن الإبل مضف على أعدائهم ثوب البُخل والشح وهو عار وشنار ولو قلنا كناية مناسبة لأعدائهم لقلنا : مُأمنُو الإبل !

ومما يزين البيت الكناية عن كرمهم من خوف إبلهم، والكناية عن بُخل أعدائهم لأمن إبلهم، ويزين البيت أيضا: الطباق بين : مروعه، تأمن.

ويجعل الشاعر مسك الختام عن الجانب المعنوى أو النفسى للضيف حين يحل ديارهم حين يقول :

ويُصبح الضيف أولانا بمنزلنا نرضى بذاك ، ويمضى حُكمه فينا

لقد أرانا الشاعر سلفا الجانب المادى فى إكرام الضيف، حيث تنحر له كرام الإبل، ولكثرة نحرها فهى في فزع دائم، ومادامت مملوكة لهم فلن تذوق طعم الأمان، وإن مُلكت لغيرهم من أعدائهم فهى هانئة طاعمة آمنة.

أما هنا فيقفنا على جانب نفسى أراهم تفردوا به في إكرام وفادة الضيف أحسبه يسمو علي الجانب المادى بمراحل، ذلك أن الضيف يصبح أولاهم بمنزلهم، أى له- وهو الغريب- صاحب الأولوية.

وتتجلي الروعة فى قوله (بمنزلنا) وهذا أدق تعبير عن إنزال الضيف تلك المنزلة في منازلهم ، يزداد الأمر وضوحا فى قوله:

(نرضى بذاك) أى لاضجر ولا استثقال لما يفعل، وذلك لعمرى غاية في السماحة، ويبلغ الغاية التى تفوق كل تصور حين يقول :

(ويمضي حُكمه فينا) فالإمضاء مشعر بنفاذ حكمه بلا رد أو اعتراض (فينا) دالة علي تعمق ذلك الحكم وسريانه فيهم سريان الماء في العود الأخضر.

حقيقة هذه خصال ثلاث : أولوية الضيف، رضاهم إمضاء حكمه فيهم تنبئ عن أريحية للكرم واهتزاز للندى، وإكرام مثوى الضيف قل

نظيرها في الكرماء، اللهم إلا ماكان من حاتم جواد العرب، حيث يقول:

وإني لعبدُ الضيف مادام ثاويا

ومافي إلا تلك من شيمة العبد [1]

فحاتم جعل نفسه عبدا للضيف طوال مقامه، واحترس لئلا يتوهم أن صفة العبودية ملازمة له حيث نفى أن يكون عبدا إلا للضيف حين ينزل به.

وأحسب أن أبافراس تأثر بقول حاتم هذا في الإذعان لأمر الضيف، فقول أبي فراس .

(ويصبح الضيف أولانا بمنزلنا) يتفق مع قول حاتم (وإني لعبد الضيف مادام ثاويا)

ولقول أبي فراس عن الرضى بما يكون من الضيف وإنفاذ حكمه فيهم.

(نرضى بذاك ويمضى حكمه فينا) شبيه عند حاتم ولربما تأسي أبو فراس بما سبقه به حاتم حيث يقول[2]

ولا أزرف ضيفي إن تأوبني ولا أداني له ما ليس باللاني [3]

---

(١) ديوان حاتم ص ٧٧ ط : دار صعب بيروت.

(٢) ديوانه ص ١٢٢.

(٣) أزرف : يقال زرف الجرح يزرف زرفا : انتقض ونُكس بعد البرء. خمس مزرف : متعب. زرف على الخمسين جاوزها/ اللسان (زرف) وفي القاموس المحيط جـ٣: ص ١٥٢ (زرف) من معانيها(التتحية).

له المؤاساة عندى إن تأوبنى وكل زاد، وإن أبقيته فانى

فيواس حاتم ضيفه ولا يستثقل طروقه لو جاءه أكثر من مرة بل يؤانسه ولا يتعبه أو يُنحيه جانبا، أو يصد عنه متشاغلا بشئ آخر بحيث يشعر الضيف بأنه غير مرغوب فيه، فهذا ليس من دأب حاتم وقد تأساه فيما أرى آل حمدان.

لذا أرى بر آل حمدان واحتفاءهم بالضيف يتفق مع مقولة عبد الله بن عمر رضى الله عنهما:

(البر شئ هين وجه طلق وكلام لين) [1] وبالله التوفيق.

---

(١) تراجع ترجمة عبد الله بن عمر جـ١ : ص ٢٨٠ تهذيب الأسماء واللغات للنووى ط . بيروت.

خاتمة البحث ونتائجه

لقد بدا لى من خلال اضطلاعى بهذا البحث أن أبا فراس الحمدانى في فخره ينحو منحى الصدق، فليس بالشاعر الفخور لذات الفخر، وإنما يفخر بفضائل لايستعيرها، بل هى متأصلة فيه وذات جذور عميقة لديه، ومافخر بشئ غير موجود عنده، فألمح من فخره الأصالة ، وقد دار فخره من خلال معالجتى له في مجالات ثلاثة هى : (الفروسية - السجايا الكريمة - أرومته آل حمدان)

وخير دليل علي شجاعته وسماحته وكريم سجاياه ماقاله عنه ابن خالويه النحوى :

« من حل من الشرف السامى والحسب النامى والفضل الرائع والأدب البارع والشجاعة المشهورة والسماحة المأثورة محل الأمير أبى فراس الحارث بن سعيد رحمه الله[1] ، كما وصفه الثعالبي وصفا بارعا حين قال عنه

«كان فرد دهره وشمس عصره أدبا وفضلا وكرما ومجدا وبلاغة وبراعه وفروسية وشجاعة»[2].

ولبنى حمدان قومه قدم وساق فى زمانهم وكفاهم شرفا (سيف الدولة)[3] ابن عم الشاعر الذى حمى ثغور الإسلام من الرومان " كن

---

(١) مقدمة ديوان أبى فراس ص ٧ط :بيروت ١٩٨٦. (٢) يتيمة الدهر ١/ ٤٨ وما بعدها .

(٣) فقد كان بطلا شجاعا كثير الجهاد جيدالرأى عارفا بالأدب والشعر جوادا ممدحا كان صاحب حلب توفى سنة ثلثمائة وست خمسين وابضع وخمسون سنة - شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ٣/ ٢٠ والأعلا

وخير وصف لبنى حمدان ما وصفهم به الثعالبى حيث يقول :

كان بنو حمدان ملوكا أوجههم للصباحة وألسنتهم للفصاحة وأيديهم للسماحة وعقولهم للرجاحة ، وسيف الدولة واسطة قلادتهم[1].

٢- أضفى شاعرنا على الفروسية ثيابا فيها من الجدة والابتكار ما يجعلنا نعده بها متفردا ،وحسبى نماذج أؤكد بها صدق ما أقول :

أ- وضع نظاما لأدب الحرب ، حين كان لا يغزو حيالارجال فيه ولا جيشا إلا بعد أن ينذرهم بزحفه عليهم ، ولا يبغتهم - وإن كان هذا من خدع الحرب - ذلك ما نراه فى قوله:[2]

ولا أصبح الحي الخلوف بغارة

ولا الجيش مالم تأن قبلى النذر[3]

وفى قوله :[4]

إذا شئت جاهرت العدو ولم أبت

أقلب فكري فى وجوه المكائد

ب - لم يكن يهدف من وراء فروسيته أى مغانم وسبايا ، كما هو الحال فى شأن المغيرين ، اللهم إلا ما كان من عنترة فى قوله لعبلة[5]:

---

(١) يتيمة الدهر ١/ ٤٨ القاهرة بتحيق محمد محى الدين .

(٢) ديوانه ص ١٥٩

(٣) ديوانه ص ٨٨

(٤) راجع معلقته ص ١٣٧-١٥٣ بشرح المعلقات السبع للزوزنى .

(٥) ديوانه ص ٨٩

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمي

يخبرك من شهد الوقيعة أنني أغشى الوغى وأعف عند المغنم

وإنما كان ينشد أبوفراس حماية قومه وعلو شأنهم، حيث يقول :[1]

منعت حمى قومي وسدت عشيرتي

وقلدت أهلي غر هذي القلائد

وربما عرض له المال والنساء في غاراته فأعرض عنهما صفحا وأراهما من نفسه أيما شمم، بل بدا تعففه في صورة يعز نظيرها حين أرانا ذوات الخدور يرددنه ويفللن من عزمه بعد أن أوقع برجالهن الهزيمة، بل ربما رد ذات الدل إلى أهلها ولم يأخذها سبية، ولا يفعل معها ما يريب، بل يهبها ما غنمه جيشة في عفه وكرم وترفع عن الدنايا، حيث يقول :

وحي رددت الخيل حتى ملكته

هزيما وردتني البراقع والخمر

وساحبة الأذيال نحوى لقيتها

فلم يلقها جافي اللقاء ولا وعر

وهبت لها ما حازه الجيش كله

ورحت ولم يكشف لأبياتها ستر

---

(١) معلقته بشرح المعلقات البع لزوزني ص ١١٨-١٢٥

يفعل ذلك أبو فراس ، على حين أخذ السبايا كان معروفا منذ القدم فهذا الشاعر الجاهلى (عمرو بن كلثوم) يطالعنا في معلقته بحذره على نساء قومه من أن تسبى فتقسم بين الأعداء ، حيث يقول[1]:

على أثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا

بل إنه يورد لنا خوف النسوة بأخذ العهد وحثهن أزواجهن علي منعهن ، بما يشبه الإنذار من النسوة إلى بعولتهن حيث يقول :

أخذن على بعولتهن عهدا إذا لاقوا كتائب معلمينا [2]

يقتن جيادنا ويقلن لستم بعولتنا إذا لم تمنعونا [3]

وبذلك نرى امتزاج الفروسية بالعفة لدى أبى فراس الحمداني في فخره بسجايا نراه افتخر بشريف الخصال ، أى فى كل ما يزين المرء ، وهذا ما استحسنه النقاد ، حيث إنهم استحسنوا فى الفخر ما استحسنو فى المدح[4] ، فمثلا نجده يفتخر بتجنب الآثام والوفاء ،والعفة ، وإكرام الجار كرم البحار ، حيث يقول عن نفسه :

شديد تجنب الآثام واف على علاته ،عف الإزار

فلا نزلت بى الجيران إن لم أجاورها مجاورة البحار

ب- فخر بكرمه وبعده عن طمع الحريص لمروءته وقناعته ، وأبان

---

(١) معلمينا ؟: لهم علامات يعرفون بها في الحروب

(٢) يقتن : يعلفن خيلنا الجياد ، من القوت : الإطعام بقدر الحاجة

(٣) العمدة ٢/ ١١٤

(٤) كوم اللقاح : القطعة من الإبل الضخام

لنا أن هذه الشيم عرف بهـا منذ يفاعته وأنه وارثهـا عن أسلافه الكرام ، حيث يقول :

وتعاف لى طمع الحريص أبوتـى

ومروءتى ، وقناعتى وعفافى

شيم عرفت بها مذ أنا يافـــــع

ولقد عرفت بمثلهـــا أسلافى

ومن اللفظ(تعاف) بيد ولنا عزوفه وبغضه لهذا الفعل الشائن !

جـ - فخر بإكرام الضيف إكرامـا مائل ، فيه أجواد العرب ، حيث يقول :

ولست بجهم الوجه فى وجه صاحبى

ولاقائل للضيف متى أنت راحل ؟

ولكن قراه ما تشهى ورفـــده

ولو سأل الأعمال ما هو سائل

كما فخر بنار القرى أسوة بالسـالفين من سمحاء العرب من أمثال حاتم الطائى حيث يقول مبينا عن نحره كوم اللقاح للضيفان :"

وتخافني كوم اللقـــــــــا ح وقد أمـــن عداتيـه [1]

ناري على شــرف تأجـــــــ ج للضيـوف الساريـه [2]

ثم يخاطب النار خطابا جميلا غير مألوف من قبله :

يانـــــار إن لم تجلبى ضيفا فلست بناريه؟

وأحسبه كما أسلفت متأسيا بحاتم في قوله لغلامه :

أوقد فإن الليل ليل قر

عسي يرى نارك من يمر

إن جلبت ضيفا فأنت حر

٤ - الملحوظ في فخره بقومه آل حمدان أنه فخر بهم لاتصافهم بجميل الصفات وترفعهم عن الدنايا كقوله[3] :

لئن خلق الأنام لحسو كأس ومزمار وطنبور وعود

فلم يخلق بنو حمدان إلا لمجد أو لبأس أو لجود

وكقوله أيضا[4] :

وإن عبرت بناد لا تطيف بـــــه

أهل السفاهة ، فاجلس ذاك نادينا

---

(١) تأجج : تلهب النار أو صوت النار

(٢) ديوان حاتم ص ٩٠

(٣) ديوانه ص ٩٧

(٤) ديوانه ص ٢٨٩

نغير فى الهجمة الغراء ننحرها

حتى ليعطش فى الأحيان راعينا [1]

ويصبح الضيف أولانا بمنزلنا

نرضى بذاك ،ويمضى حكمه فينا

فأى مجد يطمع اليه أى إنسان سوى أن يكون قومه بتلك الصفات، لقد عالج جانبا نفسيا فى إكرام قومه الضيف نادر المثال هو :

أولويةالضيف بمنزلهم ، رضاهم عن ذلك، وإمضاء حكم فهم وهو نزيلهم وفى فروسيتهم نراه يبرز جانبا له خطره في الفروسية حين يفتخر بعمه الحسين بن حمدان :

وعمى الذى اردى الوزير وفاتكا وما الفارس الفتاك إلاالمجاهر

والفارس الذى يجاهر، لا الذى يتخفى ويكمن، وأرانا لونا أخر من الفروسية لعمه الحرون :

وعمى الحرون عند كل كتيبة تخف جبال وهو للموت صابر

وهو ثبات عمه أكثر من الجبال الرواسى ، بل هى تهتز وهو صلب لا يلين !

نلاحظ أنه حين افتخر بنفسه لم ينس مجد أسلافه بل عزا ذلك الشرف والمجد الى آبائه وأجداده ، ولم يصنع صنيع المتنبى الذى عابه

---

(١) الهجة : القطعة من النياق

عليه النقاد فى قوله :

ما بقومى شرفت ، بل شرفوا بى

وبنفسى فخرت لا بجدودى[1]

حيث يقول :

وتعاف لى طمع الحريص أبوتى

ومروءتى ، وقناعتى وعفافى

ومكارمى عند النجوم ومنزلى

مأوي الكرام ومنزلى منزل الاضياف

شيم عرفت بهامذ أنا يافع

ولقد عرفت بمثلها أسلافى

وحيث يقول :

يضيق مكاني عن سواى لأننى

على قمة المجد المؤثل جالس

سبقت وقومى بالمكارم والعلا

وإن رغمت من آخرين المعاطس

وحين يفخر بآبائه يحرص على السير على نهجهم ، وأن المجد فيهم موصول ، وليس طارئا بظهوره فيهم بعد كقوله :

---

(١) ديوانه ص ٢٦٩

أنا الحارث المختار من نسل حارث

إذا لم يسد في القوم إلا الأخاير

فجدى الذى لم العشيرة جـــــوده

وقد طـــار فيهـــا بالتفرق طائر

وجدي الذى انتاش الديار وأهلها

وللدهـــر ناب فيهم وأظافـــر[1]

وبعد تعداد مآثرهم يقول :

فإن تمض أشياخى فلم يمض مجدها

ولا دثرت تلك العـــلى والمآثر

نشيد كما شادوا ونبني كما بنوا

لنا شرف ماض وآخـــر حاضر

ومن الناحية الفنية:

٦ - لاحظت أن الشاعر لم يخصص الفخر بقصائد مستقلة ، بل جاء فخره مقطوعات ، وجاء أحيانا أبيانا مبثوثه فى ثنايا قصائده استخرجتها استخراج اللؤلؤ من البحر!

٧ - انفرد الشاعر بتعبيرات أراها مبتكرة كتعبيره عن كرم قومه بنفور إبلهم ، وترويعها منهم ، لأنه يعدونها للضيفان حيث يقول :

(١) يقصد جده الذى مار الموصل وديار بكر عندما أمحلت أراضيهم ديوان ص ١٠٧.

وتجفل الشول بعد الخمس صاديـة

إذا سمعن على الأمواه حادينا

وتغتدى الكوم أشتاتا مروعـــة

لا تأمن الدهر إلا من أعادينـا

بل عد عطش راعى إبلهم أمارة على كرمهم حيث عبر بذلك قائلا:

نغير فى الهجمة الغراء ننحرها

حتى ليعطش فى الأحيان راعينا

٨ - لم يجنح الشاعر إلى المبالغة الممقوته فى فخره ، وما وجدته استعمل كلمة (أنا) إلا فى أشرف المواضع ، كقوله :

وأنا الذى ملأ البسيطة كلها نارى وطنب في السماء دخانى[1]

وكقوله مفتخرا بنسبه ، حين عدد مآثر قومه :

أنا الحارث المختار من نسل حارث

إذا لم يسد فى القوم إلا الأخاير[2]

ولفظة (أنا) تعني الفخر الذى يحمل معنى الأنانية والزهو ،

---

(١) ديوانه ص ٣٠٤.

(٢) ديوانه ص ١٠٧.

لذلك نجد شاعرا جنح عنها مستعملا (لضمير المتصل كثيرا كقوله فى فروسيته مفتخرا) :

أ - قتلت فتي بنى عمرو بن عبد

وأوسعهم على الضيفان ساحا

وقوله :

وإنى لجرار لكل كتيبـــة معودة ألا يخل بها النصر

وقوله : جمعت سيوف الهند من كل بلدة

وأعددت للهيجاء كل مجالد

وفى سجاياه يقول :

أحمـــى حريمى أن يبـــــا ح ولســـت أحمى ماليه

وقوله :

ولست بالجهم فى وجه صاحبى

ولا قائل للضيف متى أنت راحل

جـ- أما فى فخره بقومه آل حمدان فنراه يستعمل (نا) كثيرا ، ولم يقل (نحن).

كقوله :

ألم ترنا أعز الـــناس جارا وأمـــرعهم وأمنعهم جنابا

وقد علمت ربيعه ، بل نزار بأنا الرأس والناس الذنابى

بل إن الشاعر استعمل ضمير الغيبة كثيرا ، وأحسب ذلك من باب دماثه الخلق المنبثة عن تواضعه ، فهو يفخر بصدق كما أسلفت ولا يتفاخر .

كقوله فى فخره بفروسيته :

إذا التقت علي سراه قومى   ولاقينا الفوارس فى الصباح
يخف بها إلى الغمرات طود   من الأطواد ممتنع النواحى
أشد الفارسين وإن أبروا   أخف الفارسين إلى الصباح

وفى فخره بسجاياه يقول عن نفسه :

شديد تجنب الآثام واف   على علاتة ، عف الإزار

٨ – ولم نجده يفتخر بشعره كالأخرين ، بل إنه على سمو مكانته الشعرية ينفى عن نفسه الشاعرية عقب افتخاره بقومه آل حمدان ، حين يقول :

نطقت بفضلى وامتدحت عشيرتى   وما أنا مداح ولا أنا شاعر

وربما أراد أنه ليس من الشعراء المادحين الذين يمدحون لغرض مادى على حين نجد بعض الشعراء يفتخرون بقصيدهم بما يصل إلى حد المبالغة ، وحسبنا من هؤلاء المتنبى[1] الذي يقول :

---

(١) هو أبو الطيب : أحمد بن الحسين بن الحسن الجعفى الكندى المولود فى سنة ثلاث وثلمائة بالكوفة وكان من حفاظ اللغة ورواة الشعر ، قصد سيف الدولة وكافور الأخشيدى وغيرهما ، قتله فاتك الأسدى سنة أربع وخمسين وثلثمائه / خزانة الأدب جـ ٢ ص ٣٤٧ وما بعدها ، الخانجى ، وفيات الأعيان ١ / ١٢٠ –١٢٣.

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى

وأسمعت كلماتى من به صمم[1]

مع ملاحظة أنه استعمل (أنا)

ويقول :

وما الدهر إلا من رواة قصائد

إذا قلت شعرا أصبح الدهر منشد[2]

ويقول أيضا عقب مدحه للقاضى الأنطاكى :

مانال أهل الجاهليـــــة كلهم

شعرى ولاسمعت بسحرى بابل [3]

١٠- لقد كان بارعا في أختيار ألفاظه حين يفتخر ، حيث جاءت على أقدار المعانى التي يهدف إليها ، وهو بهذا ناهج النهج الذى ارتضاه النقاد ، والذ يتمثل فى نصيحة القاضى الجرجانى التي جاء فيها(... ولا يكون غزلك كافتخارك ، ولا مديحك كوعيدك ، ولا هجاؤك كاستبطائك .. بل ترتب كلامرتبتة وتوفيه حقه ، فتلطف إذا تغزلت ، وتفخم إذا افتخرت ...)[4]

---

(١) العرف الطيب ، بشرح ديوان أبى الطيب ٢/ ١٢٠.

(٢) المرجع السابق ٢/ ١٨٤

(٣) المرجع السابق ١/ ٣٥٤

(٤) الوساطة بين المتنبى وخصومه ص ٢٤ ط ، بيروت .

وحسبنا نماذج نقتطفها من روضته الفينانة في الأبيات التالية[1] :

أ - من فخره بالفروسية :

لا تحرز الدرع عنى نفس صاحبها

ولا أجير ذمام البيض واليلب[2]

وقوله :

ولى عند العداة بكل أرض ديون فى كفالات الرماح

وقوله وهو أسير لدى الروم :

وما الأسر مما ضقت ذرعا بحمله

وما الخطب مما أقول له قدى [3]

ولكني أختار موت بنى أبى

على صهوات الخيل غير موسد

ويخص نفسه بالذكر لدى قومه ليقتدوه من براثن الأسر :

متي تلد الأيام مثلى لكم فتى شديدا على البأساء غير ملهد[4]

وإن تفتدونى تفتدوا لعلاكم فتى غير مردود اللسان أو اليد

---

(١) سبق الوقوف عليها

(٢) البيض السيوف ، اليلب : الدروع من الجلود والتروس

(٣) قدى : حسبى

(٤) الملهد : الذليل الضعيف .

وقوله :

مرير على الأعداء ، لكن جاره

إلي خصب الأكناف عذب الموارد

ب - ومن فخره بالصفات النبيلة قوله :

شديد تجنب الآثام واف على علاتة ، عف الإزار

وقوله : رفعت على الحساد نفسي وهل هم

وماجمعوا لو شئت إلا فرائسُ؟

يضيق مكانى عن سواى لأننى على قمة المجد المؤثل جالس[1]

وقوله :

وأنا الذي ملأ البسيطة كلها ناري وطنب في السماء دخاني [2]

وقوله :

أحمى حريمى أن يبـــــا ح ولست أحمى ماليه

وتخافنى كوم اللقـــــا ح وقـــد أمن عداتيه [3]

وقوله: وتعاف لى طمع الحريص أبوتى

ومروءتى وقنـــاعتى وعفـــافى

---

(١) المؤثل : الأصيل.

(٢) طنب : طنب بالمكان : أقام به

(٣) كوم اللقاح : القطعة من الإبل الضخام.

(جـ) ومن فخره بمكارم قومه قوله :

تفضلنا الأنام ولا تُحاشى ونوصف بالجميل ولا تحابى[1]

وقد علمت ربيعة، بل نزار بأنا الرأس والناس الذنـــابى[2]

وقوله :

إذا اشتـــــد الزمـــا ن وناب خطب وادلهم

ألفيت حول بيوتنـــــا عُدد الشجاعة والكرم

للقاء العدا بيض السيـــو ف وللندي حمر النعم

هذا وهذا دأبنـــــــا يـــودى دم ويراق دم

وقوله :

لنا بيت على عنق الثريا بعيد مذاهب الأطناب سلم

تظلله الفوارس بالعوالى وتفرشـــه الولائد بالطعام

وقوله عن صفة مجلسهم :

وإن عبرت بناد لاتطيف به أهل السفاهة، فاجلس ذاك نادينا

وعن كرمهم :

نغير في الهجمة الغراء تنحرها

حتى ليعطش فى الأحيان راعينا[3]

---

(١) لاتحاشي : لاتستثنى.

(٢) الذنابي : ذنب الطائر.

(٣) الهجمة : القطعة من النياق.

وقوله عن حال الضيف لديهم :

ويصبحُ الضيف أولانا بمنزلنا

نرضى بذاك ، ويمضى حكمه فينا [1]

١٠- من الملحوظ أنه سما بالأسلوب سموا بلغ فيه حد الروعة ، مما ينبئ عن ارتضاعه من أفاويق اللغة فصاغه أحسن صياغه، حيث لاتكلف ممجوج ، بل صاغه على سجيته ينساب انسياب الماء الزلال عذبا شهيا لذة للشارين بألسنة عقولهم ، لا بأفواههم ومما زاده حُسنا ماضمخه به من أريج البلاغة، حيث جمله بأسرار بيانية من تشبيه واستعارة وكناية، كما زانه أيضا بألوان من البديع، ولم يفته عطر الالتفات[2]، وبهذا أراه وشى أسلوبه بألوان الزخارف والحُلى التى تطرب لها الأذن ويهش لها الفؤاد ولا ينبو عنها الذوق ، الأمر الذي يجعلنى أقول إن ارتقاء أسلوبه يُعد ضميمة تتآخى مع سوابقها من أصالة وصدق ومناسبة الألفاظ لأقدار المعانى لتميط اللثام عن فلسفة فخر الشاعر التى تميزه عن سواه من الفاخرين الذين (معظمهم) يتخذون من الفخر وسيلة لإشباع رغباتهم في صنع مجد أوادعائه وكما قيل : ليس الكحل كالحكل!

---

(١) هذه نماذج سقتها لبيان الألفاظ التى اختارها لمعانيه في الفخر وهى جد فخيمة ومن شاء المزيد فليرجع إلى تعليقي عليها ونقدى لها.

(٢) لم أذكر نماذج خشية الإطالة وهى ليست منا ببعيد.

وبعد..

فبتوفيق بالله سبحانه وتعالى أختتم هذا البحث بعد أن جليتُ الفخر لدى الشاعر أبي فراس الحمدانى متوخيا الموضوعية فيما كتبت فقد أنصفت الرجل وما أطريته، ولعلى أكون بذلك الجهد قد أصبت، وعلى الله توكلت ،،

(وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب)

د. محمد حسن عبد اللطيف

مراجع البحث

مراجع البحث

١- القرآن الكريم

٢- أساس البلاغة للزمخشرى ط : دار الكتب

٣- الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر تحقيق على البجاوى ط : بيروت.

٤- أسس النقد الأدبى عند العرب د/ أحمد أحمد بدوى ط : نهضة مصر.

٥- البخلاء للجاحظ ط : المكتبة الثقافية بيروت.

٦- البداية والنهاية لابن كثير ط : بيوت.

٧- بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب للألوسي ط : دار الكتب العلمية بيروت.

٨- تهذيب الأسماء واللغات للنووى ط : بيروت

٩- تهذيب تاريخ ابن عساكر ط : دمشق.

١٠- خزانة الأدب للبغدادى تحقيق عبد السلام هارون ط : الخانجى

١١- ديوان أبي فراس الحمدانى تحقيق د/ سامى الدهان ط : بيروت.

١٢- ديوان أبى فراس الحمدانى ط . بيروت.

١٣- ديوان الأعشى ط : بيروت.

١٤- ديوان بشار بن برد ط: لجنة التأليف والترجمة والنشر.

١٥- ديوان جرير ط : دار بيروت.

١٦- ديوان حاتم الطائى شرح فوزى عطوى ط : دار صعب بيروت.

١٧- ديوان حسان بن ثابت ط : بيروت .
١٨- ديوان الخنساء ط : دار بيروت.
١٩- ديوان الفرزدق ط : دار بيروت.
٢٠- سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي : تحقيق حسين الأسد ط : مؤسسة الرسالة بيروت.
٢١- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي ط : دار الآفاق بيروت.
٢٢- شرح المعلقات السبع للزوزني ط : مصر.
٢٣- شعراء النصرانية للأب لويس شيخو ط : بيروت.
٢٤- الشعراء اليهود العرب مراد فرج ط : صلاح الدين بالاسكندرية.
٢٥- العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب لناصيف اليازجي ط : بيروت.
٢٦- العمدة لابن رشيق القيرواني ط : دار السعادة بمصر.
٢٧- عمرو بن العاص بن يدى التاريخ عبد الخالق أبو رابية/ الزهراء للاعلام العربي .
٢٨- العين للخليل بن أحمد تحقيق المخزومي السامرائي ط : مؤسسة الأعلمي بيروت.
٢٩- في الأدب الحديث عمر الدسوقي ط: دار الفكر بمصر.
٣٠- القاموس المحيط للفيروزأبادي ط: بيروت.
٣١- لسان العرب لابن منظور ط : دار صار بيروت.

٣٢- مجمع الزوائد للهيثمى ط : مؤسسة المعارف بيروت.
٣٣- معجم البلدان لياقوت الحموى تحقيق فريد الجندى ط : بيروت.
٣٤- المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ط: الأنجلو المصرية.
٣٥- الهوامل والشوامل لأبى حيان التوحيدى ط : لجنة التأليف والترجمة.
٣٦- الوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضى الجرجانى ط : المكتبة العصرية بيروت.
٣٧- وفيات الأعيان لابن خلكان ط : دار صادر بيروت.
٣٨- يتيمه الدهر للثعالبى تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ط : القاهرة.